جامعـة الأزهـــر
كليـة الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق
المجلة العلميـة

"من الأسرار البلاغية في مرثية البصرة لابن الرومي"

إعداد

د/ شهيدة مسعد علي مرعي
قسم البلاغة والنقد - جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية- بنات القاهرة

(العدد الثالث عشر)
(الإصدار الثاني١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)
(الجزء الثاني)

علمية- محكمة- نصف سنوية

"من الأسرار البلاغية في مرثية البصرة لابن الرومي"

شهيدة مسعد علي مرعي
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: shahedahm480@@ azhar.edu.eg

ملخص:

لما كانت البلاغة العربية بعلومها المتكاملة وفنونها المختلفة وثيقة الصلة بالشعر، حيث تصور حالة الشاعر وقت إبداعه، وتكشف عن خبيئته ومكنونه في صورة واضحة للمتلقي، وتنقل انفعالاته وما يدور في خلده أثناء نظمه الشعر في الأغراض المختلفة من مدح وهجاء ووصف ورثاء؛ وتنقل كل هذا بوضوح للمتلقي فقد حاولت في هذا البحث أن أعكس صورة ابن الرومي وتأثره لما أصاب مدينة البصرة من خراب، على يد الزنج سنة٢٧٥هـ، حيث تحدث بها عما ألحقه الزنج بأهل البصرة من تعذيب وإذلال، وما ألحقوه بالبصرة من تخريب بعد أن كانت منارة للعلم والأدب، البصرة، فقد رسم صورة متكاملة من خلالها يثور على الظلم وأهله من الزنج، الذين انتهكوا الحرمات، وقضوا على المقدسات، في أبشع صورة يعرفها البشر مستخدما الفنون البلاغية من معان وبيان وبديع للتأكيد على هذه المعاني الإنسانية.

وقد جاء البحث محاولة للتعرف على الأسرار البلاغية في القصيدة وتمكين المتلقي من الوقوف على تلك الأسرار لإدراك أهميتها في رسم الصورة الكلية للقصيدة.

وقد جاء البحث في مقدمة ومبحثان وخاتمة، أما المقدمة؛ فقد تناولت فيها أهمية الموضوع، وخطة البحث؛ ثم جاء وفي المبحث الأول تناولت الإطار النظري للبحث، وهو التعريف بابن الرومي، وشعره، والتعريف بالرثاء، ومنه رثاء المدن.

وفي المبحث الثاني تناولت الأسرار البلاغية في قصيدة رثاء البصرة لابن الرومي، أما عن الخاتمة فقد تضمنت أبرز النتائج التي أسفر عنها البحث

الكلمات المفتاحية: الأسرار– البلاغية– رثاء – البصرة– ابن الرومي.

""From the Rhetorical Secrets in Ibn Al-Rumi's Basra Elegy"

Shahida Musad Ali Marhi
Department of Rhetoric and Criticism - Faculty of Islamic and Arabic Studies, Cairo Girls, Al-Azhar University - Egypt..
Email: shahedahm480@ azhar.edu.eg

Abstract :

Praise be to Allah for what He has bestowed, and may Allah's blessings and peace be upon our Master Muhammad, his family and companions. And after Since Arabic rhetoric, with its integrated sciences and various arts, is closely related to poetry, as it depicts the state of the poet at the time of his creativity, reveals his hidden essence in a clear image for the recipient, and conveys his emotions and what is on his mind while he composes poetry for various purposes of praise, satire, description, and lamentation; All of this is conveyed clearly to the recipient. In this research, I tried to reflect the image of Ibn al-Rumi and his impact on the devastation that befell the city of Basra, at the hands of the Zanj in the year 275 AH, where he spoke about the torture and humiliation the Zanj inflicted on the people of Basra, and the devastation they inflicted on Basra after it had been a beacon of knowledge. Literature, Basra, has drawn a comprehensive picture through which it revolts against injustice and its people, the Zanj, who violated the sanctities and destroyed the sanctities, in the ugliest image known to mankind, using the rhetorical arts of meanings, clarification, and exquisiteness to emphasize these human meanings. The research was an attempt to identify the rhetorical secrets in the poem and enable the recipient to understand those secrets to realize their importance in drawing the overall picture of the poem. The research consisted of an introduction, two sections, and a conclusion. As for the introduction: It discussed the importance of the topic and the research plan. Then came the first section, which dealt with the theoretical framework of the research, which is the introduction to Ibn al-Rumi, his poetry, and the introduction to elegies, including the elegies of cities.

In the second section, I dealt with the rhetorical secrets in Ibn al-Rumi's poem Lamentation for Basra. As for the conclusion, it included the most prominent results that resulted from the research.

Keywords: Secrets - Rhetorical - Elegy - Basra - Ibn Al-Rumi.

المقدمة

الحمد لله على ما أنعم، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم.

وبعد

فلما كانت البلاغة العربية بعلومها المتكاملة وفنونها المختلفة وثيقة الصلة بالشعر، حيث تصور حالة الشاعر وقت إبداعه، وتكشف عن خبيئته ومكنونه في صورةٍ واضحةٍ للمتلقي، وتنقل انفعالاته وما يدور في خلده أثناء نظمه الشعر في الأغراض المختلفة من مدحٍ وهجاءٍ ووصفٍ ورثاءٍ؛ وتنقل كلَّ هذا بوضوحٍ للمتلقي فقد حاولتُ في هذا البحث أن أعكس صورة ابن الرومي وتأثره لما أصاب مدينة البصرة من خراب، على يد الزنج سنة٢٧٥هـ، حيث تحدث بها عما ألحقه الزنج بأهل البصرة من تعذيب وإذلال، وما ألحقوه بالبصرة من تخريب بعد أن كانت منارةً للعلم والأدب، فقد رسم صورةً متكاملةً من خلالها يثورُ على الظلمِ وأهلِه من الزنج، الذين انتهكوا الحرمات، وقضوا على المقدسات، في أبشع صورةٍ يعرفها البشر؛ مستخدمًا الفنون البلاغية من معانٍ وبيانٍ وبديعٍ للتأكيد على هذه المعاني الإنسانية.

وفي القصيدة يبكي ابن الرومي على مدينة البصرة التي كانت مركزًا للإشعاع والحضارة، والتي اغتالها واحتلها الزنوج العبيد السود في منتصف القرن الثالث الهجري، والحق أقول: إن هذه القصيدة بما ورد فيها من حسراتٍ وعبراتٍ وأنَّاتٍ تصف الواقع المؤلم المفجع المفظع الذي حلَّ ببعض بلداننا العربية من أمثال العراق وسوريا وليبيا، وفي هذه الأيام أرض فلسطين التي تهدم وتخرب فيها الدور والخدور، ويستشهد على إثر ذلك الولدان والنساء والشيوخ من العدو المحتل المختل اليهودي الإسرائيلي المغتصب، الذي وصفه القرآن الكريم بقسوة القلب؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، وقلوبهم أعتى وأقسى من الحجارة كما حدث القرآن الكريم عنهم، قال تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وتراهم يتشدَّقون بحقوق الإنسان وبالمبادئ الإنسانية، وهم أبعد ما يكونون عن هذه الحقوق.

وهذا البحث محاولة للتعرف على الأسرار البلاغية في القصيدة، وتمكين المتلقي من الوقوف على تلك الأسرار لإدراك أهميتها في رسم الصورة الكلية للقصيدة.

وقد جاء البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة، أما المقدمة؛ فقد تناولت فيها أهمية الموضوع، وخطة البحث، ثم المبحث الأول تناولت فيه الإطار النظري للبحث، وهو التعريف بابن الرومي، وشعره، والتعريف بالرثاء، ومنه رثاء المدن.

وفي المبحث الثاني تناولت أهم الأسرار البلاغية في قصيدة رثاء البصرة لابن الرومي، أما عن الخاتمة فقد تضمنت أبرز النتائج التي أسفر عنها البحث.

***

المبحث الأول (الإطار النظري)

- **التعريف بابن الرومي وشاعريته.**
- **التعريف بالرثاء-رثاء المدن.**

المطلب الأول

ابن الرومي وشاعريته

ابن الرومي (٢٢١ - ٢٨٣ هـ = ٨٣٦ - ٨٩٦ م)

هو علي بن العباس بن جريج، أو جورجيس، الرومي، مولى عبيد الله بن جعفر بن المنصور، وجده جريح رومي قح، وكان أبوه أسيرًا روميًا ربما أسر طفلًا أو في مقتبل العمر، حتى إذا أسلم اتخذ اسما عربيا يليق بمواليد العباسيين وليس هناك ما هو أقرب لنفوسهم من اسم جدهم العباس، ويبدوا أنهم وهبوه حريته، فليس هناك في أشعار ابن الرومي ما يشير إلى رق أبيه، وأمه فارسية الأصل تدعى حسنة بنت عبيد الله السجري، ويقول في إشارة إلى نسبه(١):

وكيف أغضى على الدنية والفرس خؤولي والروم أعمامي

وقد تتوجت من ولاء أبي العباس تاجًا يسمو به السامي

نشأته:

عاش ابن الرومي حياة مضطربة منذ أن سكن طائر الموت بيته فالتقط أول الأمر أخاه، ثم أمه والتي كان لفقدها أثر عظيم على حياة الشاعر ونشأته، ثم فقد أبنائه الثلاثة فقد قوته وطموحه في الحياة وكانت الطامة الكبرى بوفاة زوجته: "فلم يبقى في ساحة الفجيعة سواه، فانقلب هو ذاته فجيعة لا ترثى غيرها بقدر ما ترثى نفسها ومن المفجوعين من يصلحون لتحمل الفواجع وتتجاوز آلامها وهمومها أو أن همهم تشحذ وتتبلور، بل تتجوهر بنار العذاب فيبرزون للحياة مسلحين بسلاح التجربة المُرَّة، وينجحون في الصراع على الحلبة؛ لكن ابن الرومي من غير هذه الطينة الصراعية الفذة، إنه من طينة من يتهاون أمام

(١) ركان الصدفي، ابن الرومي الشاعر المجدد، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م، ص١٣.

الكارثة، لا يعرفون كيف يدفعونها أو يدفعون آثارها، كل ما يعرفونه هو الاكتواء بها، والهروب منها والارتماء على وهجها(١).

ثقافته:

حفظ ابن الرومي ما تيسر له من القرآن الكريم ومن مختارات الشعر والخطب، وتعلم أصول الحساب، كما استفاد ابن الرومي من مناظرات العلماء من النحويين والفقهاء.

كما اطلع على كتب المنطقيين والفلاسفة والمنجمين، وفى شعره إشارة تثبت اطلاعه على مثل هذه العلوم(٢).

وقد تتلمذ ابن الرومي على العديد من العلماء الذين عاصروه، منهم محمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ)، وأبو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفي المحدث، والمبرد بن محمد بن يزيد (٢٨٦هـ).

وفاته:

ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ، ونشأ بها، وأقام كل حياته بها، وكان كثير التطيُّر جدًّا، وكان القاسم بن عبيد الله وزير المعتز يخاف هجوه وفلتات لسانه، فسلط عليه من دسَّ له السمَّ في الدسم، إلى أن مات سنة ٢٨٣هـ ببغداد.

مكانته الشعرية:

ابن الرومي شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل، كان جده من موالي بني العباس، ولد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسمومًا، قيل: دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد) وكان ابن الرومي قد هجاه. قال

(١) خليل شرف الدين، ابن الرومي، دار مكتبة الهلال–الموسوعة الأدبية الميسرة، بيروت . ط٢، د.ت.٨٤ ص٤٢.

(٢) الديوان، ٧/١.

المرزباني: لا أعلم أنه مدح أحدًا من رئيس أو مرؤوس، إلا وعاد إليه فهجاه، ولذلك قلّت فائدته من قول الشعر، وتحاماه الرؤساء، وكان سببا لوفاته.

وكان ينحل "مثقال الواسطي" أشعاره في هجاء القحطبي وغيره، قال المرزباني أيضا: وأخطأ محمد بن داود فيما رواه لمثقال من أشعار ابن الرومي التي ليس في طاقة مثقال ولا أحد من شعراء زمانه أن يقول مثلها غير ابن الرومي، له "ديوان شعر – خ" في ثلاثة أجزاء، وقد بوشر طبعه، واختصره كامل الكيلاني، وسمى المختصر "ديوان ابن الرومي – ط"، ولأحمد بن عبيد الله الثقفي (المتوفى سنة ٣١٩) كتاب "أخبار ابن الرومي والاختيارات من شعره"، ولعباس محمود العقاد "حياة ابن الرومي – ط "، ولعمر فروخ "ابن الرومي – ط"، ومثله لمدحت عكاش، ولحنا نمر، وللمستشرق رفون جست (Rhuvon Guest) كتاب "حياة ابن الرومي – ط" بالإنجليزية(١).

قال شعرًا في كل غرض، ولا سيما الوصف والهجاء، ونبغ في الشعر نبوغًا لم يقصر به كثيرًا عن درجة البحتري، وربما فاقه في اختراع المعاني النادرة، أو توليدها من معاني من سبقه بشكلٍ جديدٍ، ووضعها في أحسن قالب، ومن جيد شعره قوله:

وإذا امرؤ مدح امرًا لنوالــه ... وأطال فيه فقــد أراد هجـاءَهُ

لو لم يقدِّر فيه بُعْدَ المُسْتقَى ... عند الورود لَمَا أطال رِشاءَهُ(٢)

(١) الأعلام للزركلي:٢٩٧/٤ –دار العلم للملايين– الطبعة: الخامسة عشرة– أيار / مايو ٢٠٠٢م، وفيات الأعيان ١: ٣٥٠، ومعاهد التنصيص ١: ١٠٨، وتاريخ بغداد ١٢: ٣١٣، ومعجم الشعراء للمرزباني ٢٨٩ و ٤٤٨، والذريعة ١: ٣١٣، ومجلة الكتاب ١: ١٨٦، ودائرة المعارف الإسلامية ١: ١٨١.

(٢) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب:١٩٥، ١٩٦.

قال رجل لابن الرومي يمازحه: ما أنت والشعر؟ لقد نلت منه حظًّا جسيمًا وأنت من العجم، أراك عربيًّا في الأصل أو مدعيًا في الشعر! قال: بل أنت دعيٌّ؛ إذ كنت تنتسب عربيًّا ولم تحسن من ذلك شيئًا(١).

قال ابن رشيق: وليس في المولدين أشهر اسمًا من الحسن أبي نواس، ثم حبيب والبحتري، ويقال: إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد، ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين وامرئ القيس في القدماء؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد يجهلهم أحدٌ من الناس، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس(٢).

وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر؛ لكثرة اختراعه، وحسن افتتانه، وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به؛ فصار يقال: أهجى من ابن الرومي، ومن أكثر من شيء عرف به، وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر، ولكن قليل الشر كثير(٣).

وكان ابن الرومي من أكبر كُتَّاب الدواوين، فغلب عليه الشعر؛ لأنه غلاب. وكما تجد من يمدح السوقة في الشعراء فكذلك تجد للسوقة كُتَّابًا، وللتجار الباعة، في زمننا هذا وقبله(٤).

وابن الرومي من الشعراء المجددين في العصر العباسي، لا تتوقف شاعريته عند غرضٍ معينٍ، فقد امتلك من الكفاءة اللغوية، والفنية ما يمكنه من نظم الشعر في كل غرضٍ من الأغراض الشعرية؛ فحيثما تهب عليه نسائم

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني الأزدي ت: محمد محيي الدين عبد الحميد: ١/٧٢، ٧٧- دار الجيل- الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(٢) السابق: ١/١٠٠.

(٣) السابق: ١/٢٨٦.

(٤) السابق: ١/٢٢.

الشعر الذي يتوافق مع الغرض، فهو يتقن الوصف والتصوير، والمدح والهجاء، والفخر والرثاء وغيرها من الأغراض التي قيل فيها الشعر في عصره.

* * *

المطلـــب الثاني
الرِّثاء

الرِّثاء لغةً:

جاء في لسان العرب: "رَثَى فُلَانٌ فُلَانًا يَرْثِيهِ رَثْيًا ومَرْثِيَةً: إذا بكاهُ بَعْدَ مَوته. قَالَ: فإِنْ مدَحَه بَعْدَ مَوْتِهِ قِيلَ: رَثَّاهُ يُرَثِّيه تَرْثِيَةً. ورَثَيْتُ الميّتَ رَثْيًا ورِثَاءً ومَرْثَاةً ومَرْثِيَةً ورَثَّيْته: مَدَحْته بَعْدَ الْمَوْتِ وبَكَيْته. ورَثَوْت الْمَيِّتَ أَيضًا: إذا بكَيْته وعدَّدت مَحَاسِنَهُ، وَكَذَلِكَ إذا نظَمْت فِيهِ شِعْرًا[١].

واصطلاحاً: هو غرضٌ شعريٌّ تبعثه فاجعة الموت بعزيزٍ رحل، أو عظيمٍ مُفتقد، فالرِّثاء "هو هذا التعبير بالذات: التفجُّع على الميت، وبكاء فضائله، وتصوير مشاعر الوِجْدان، حيال حادثة الموت"[٢]، وقد عُرف الرِّثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كان النساءُ والرجالُ جميعهم يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مُؤبِّنين لهم، مُثْنِين على خصالهم، وقد يخلصون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأنَّ ذلك مصير محتوم"[٣].

الرثاء هو وسيلة الشاعر على وجهٍ خاصٍّ للتعبير عن الحزن من الفقد – فقد الأشخاص– الملك، السلطة، فهو يعبر عن الحزن عن كل ما يفقد، ولكن

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠، ط١، مادة رثي، العمدة: ٢٢/١.
(٢) عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص١٩١.
(٣) شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥، ط٣، ص٧.

الرثاء عند ابن الرومي كان له شكلٌ خاصٌّ؛ نظرًا لكونه شاعرًا حادَّ الطبع، يتميز بعض هجائه بالفحش والبذاءة، فقد جاء رثاؤه بصورةٍ مختلفةٍ تحمل صورةَ شخصٍ مرهفِ القلب والحس، وكأنما يقوم الفقد بتأديبه فيظهر ذلك في أشعاره، يقول في رثاء أمه(١):

أفيضـــًا أن الرزايـــا لهم قيـــم فليـــس كثيرا أن تجـودا لهـــا بـــدم

ولا تسريحا من بكـــاء إلى كرى فلا حمد ما لم تسعدني على السأم

ويا لذة العيش التي كنت أرتضي تقطـــع ما بيني وبينـــك فانضـــرم

ويرثي ابنه محمدًا فيقول(٢):

توخى الحمام أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقد

على حين شمت الخير في لماحته وآنست من أفعاله آية الرشد

أنواع الرثاء عند ابن الرومي:

تتعدد أنواع الرثاء عند ابن الرومي، فمنها:

١- رثاء الاشخاص وله أقسام متعددة، هي:

أ.الرثاء الرسمي.

ب.رثاء النفس وهو رثاء ذاتي.

ج. رثاء الأهل والأحبة.

د. رثاء العلماء، والأصدقاء.

٢- رثاء المدن والأماكن.

رثاء المدن هو غرضٌ شعريٌّ ونثريٌّ، ظهر في الأدب العربي كردِّ فعلٍ للهزيمة وتقلص الوطن والمدن الإسلامية، وتعبيرًا عن التقلبات السياسية التي

(١) الديوان، ٣/٢٨٨.

(٢) الديوان، ٢/٦٢٤.

امتلأت بها فترات الحكم الإسلامي، ولم يكن غرضًا مستحدثًا فهو موجود منذ الجاهلية منذ أن كان مطلع القصيدة الجاهلية هو البكاء على الأطلال.

لكن في العصر العباسي أخذ هذا الغرض في فرض سيطرته على باقي أنواع الرثاء الأخرى، وخاصة بعد سقوط عاصمة الخلافة بغداد في بركة من التخريب/ عقب صراع الأمين والمأمون على الحكم، والذي يصفه الورَّاق فيقول(١):

ألم يكن فيك قوم كان سكنهم وكان قربهم زينا من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ماذا ألقيت بهم في لوعة البين
أستودع الله قومًا ما ذكرتهم لانحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهرًا وصدعهم والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقد "كانت الاضطرابات السياسية في العصر العباسي سببًا في تعرض بعض المدن والقرى للدمار والنهب؛ من جرَّاء الحروب الطاحنة التي كانت رحاها تدور فتطحن الناس، وتوزع الموت في كل مكان، وقد تأثر الشعراء بهذه الأحداث المؤلمة...، فنشأ هذا الفن في العصر العباسي الذي تجذرت قيمه في نفوس الشعراء العباسيين، فكانوا في رثائهم للمدن يدافعون عن الحضارة والرقي في وجه الهمجية، وعن الجمال والسلام في وجه العنف والوحشية، وكان رائد هذا الفن"(٢)؛ يقول ابن الرومي في رثاء بغداد:

يا بؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها
كتائب الموت تحت ألوية أبرح منصورها وناصرها

(١) راكن الصدفي، ابن الرومي الشاعر المجدد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠١٢م، ص١٤٢.

(٢) ابن الرومي الشاعر المجدد، ص١٤٢.

يحرقهـــــا ذا وذاك يهمهـــــا ويشـــتفى بالنهـــاب شـــاطرها
والكـــــرخ أســـــواقها معطلـــــة يســـــتن عيارهـــــا وعائرهـــــا
بـــل هـــل رأيـــت الســـيوف مصـــلته أشـــهرها فـــي الأســـواق شـــاهرها
والخيـــل تســـتن فـــي أزقتهـــا بـــالترك مســـنونة خناجرهـــا

وقال في رثاء البصرة بعد أن استولى عليها الزنج، "فوصف غلبة الزنج عليها والمآسي المروعة التي تعرضت لها، وكعادته يهتم بالوقائع، ويستقصي دقائق الأحداث وتفاصيلها، وقصيدته تبلغ الذروة إحكامًا في بنائها، وتسلسلًا في أفكارها، وكل بيتٍ يسلمك إلى ما بعده ضرورة، وفيها يتحدث عن العذارى يتعرضن للاعتداء، ويجعلهن أبكارًا تأكيدا، وأنَّ فضحهن كان جهارًا، ووقف عند الاعتداء على الأطفال وقتلهم، وألمح إلى القصور التي استحالت إلى التلال والتراب"(١).

ومن أهم قصائد رثاء المدن عند ابن الرومي هي قصيدة رثاء البصرة التي سيتم تناولها من خلال البحث، وابن الرومي (تظل البصرة في رثائه حاضرة ممجدة السيرة، أصابتها نكبة لم يشهد قبلها العرب مثلها في حروبهم؛ ويعمل الشاعر على تجسيد المدينة بساكنيها، فكل فعلٍ يقع على المواطنين، إنما يصيب المسكون والساكن معا، فالحجر والبشر، كلٌّ لا يتجزأ؛ إذ إن تخريب البناء يشرد أهله ويذهب به، فلا البيت يبقى ولا من كان بداخله يظل فيه)(٢).

***

(١) دراسات أندلسية في الأدب والفلسفة والتاريخ، الطاهر أحمد مكي، ص٢٠٣، دار المعارف، ١٩٧٧م.

(٢) رثاء ابن الرومي بين الاتباع والابتداع، علي أصغر حبيب، ص٧٩، مجلة إضاءات نقدية، ١٣٩٠هـ - ٢٠١١م.

المبحث الثاني

من الأسرار البلاغية في مرثية البصرة لابن الرومي

القصيدة [١]

١. ذادَ عـن مُقْلِتـي لذيـذَ المنـامِ شُـغلها عنـهُ بالـدموعِ السـجامِ
٢. أيُّ نـومٍ مـن بعد مـا حـل بـالبصْ رَةِ مـن تلكـمُ الهنـاتِ العظـام
٣. أيُّ نـومٍ من بعد ما انتهك الزّنْ جُ جهـاراً محـارمَ الإسـلام
٤. إنَّ هـذا مـن الأمـورِ لأمْـرٌ كـاد أن لا يقـومَ فـي الأوهـام
٥. لرأينـا مُسْـتَيْقظين أمـوراً حسـبُنا أن تكـونَ رُؤيـا منـام
٦. أقـدم الخـائنُ اللعـينُ عليهـا وعلـى الله أيَّمـا إقـدام
٧. وتسـمَّى بغيـر حـقٍّ إمامـاً لا هـدى اللَّـهُ سـعيَه مـن إمـام
٨. لهـفَ نفسـي عليـكِ أيَّتُهـا البص رةُ لهفـاً كمثـل لفـحِ الضِّـرام
٩. لهف نفسي عليك يا معدن الخي رات لهْفـاً يُعضُّـني إبهـامي
١٠. لهـف نفسـي يـا قُبَّـةَ الإس لام لهفـاً يطـولُ منـه غرامـي
١١. لهف نفسي عليكِ يا فُرضةَ البل دانِ لهفـاً يبْقـى علـى الأعـوام
١٢. لهـف نفسـي لجمعـكِ المتفـاني لهـف نفسـي لِعِزِّكِ المُستضـام
١٣. بينمـا أهلُهـا بأحسـنِ حـالٍ إذ رمـاهمْ عبيـدُهمْ باصـطلامِ
١٤. دخلوهـا كـأنهم قِطـعُ اللّـي لِ إذا راحَ مُـدْلَهِمَّ الظـلام
١٥. طلعُـوا بالمُهَنَّـداتِ جِهْـراً فألقـتْ حملهـا الحـاملات قبـل التَّمـام
١٦. وحقيـقٌ بـأن يُـراع أنـاسٌ غوفصـوا مـن عـدوهم باقتحـام
١٧. أيَّ هَـوْل رأوْا بهـمْ أيّ هَـوْلٍ حُـقَّ منـه تشـيبُ رأسُ الغـلام

(١) ديوان ابن الرومي، أحمد حسن بسج. مصدر سابق، ٣/٣٣٩.

١٨. إذ رمــوْهُمْ بنــارهم مــن يمــينٍ وشِـــمال وخلفِهـــمْ وأمـــام
١٩. كـم أغصُّـوا مـن شـاربٍ بشـراب كـم أغصُّـوا مـن طـاعمٍ بطعـام
٢٠. كــم ضــنينٍ بنفســهِ رامَ مَنْجــىً فتلقّـــوا جبينـــه بالحســـام
٢١. كــم أخٍ قــد رأى أخــاهُ صــريعاً تـرِبَ الخَـدِّ بـينَ صَـرْعى كـرامِ
٢٢. كــم أبٍ قــد رأى عزيــزَ بنيــه وهْـوَ يُعلَـى بصـارمٍ صمصـام
٢٣. كــم مُفــدّىً فــي أهلــهِ أسْـلمُوه حـين لـم يحْمِـه هنالـك حـامي
٢٤. كــم رضــيع هنــاكَ قــد فطمــوه بشبا السيف قبل حينِ الفطام
٢٥. كـــم فتـــاةٍ بخـــاتِم الله بِكـــرٍ فضـحوها جَهْـراً بغيـر اكتتـام
٢٦. كــم فتــاةٍ مصــونة قــد ســبوْها بـــارزاً وجههـــا بغيـــر لثـــام
٢٧. صــبحوهُمْ فكابــدَ القــومُ مــنهم طـولَ يـومٍ كأنــه ألــفُ عــامِ
٢٨. ألــفُ ألــفٍ فــي ســاعةٍ قتلــوهُمْ ثـم سـاقوا السِّـباءَ كالأغنـام
٢٩. مــن رآهُــنَّ فــي المســاقِ ســبايا داميـــاتِ الوجـــوهِ للأقـــدام
٣٠. من رآهنَّ في المقاسم وسْطَ ال زنــج يُقسَـمْنَ بيـنهم بالسِّـهام
٣١. مـــن رآهُـــنَّ يُتّخـــذنَ إمـــاءً بعــد ملْــكِ الإمــاء والخُــدَّام
٣٢. مــا تــذكرتُ مــا أتــى الــزنج إلا أُضــرم القلــب أيّمــا إضــرام
٣٣. مــا تــذكرتُ مــا أتــى الــزنج إلا أوجعَتْنـــي مـــرارةُ الإرغـــام
٣٤. رُبَّ بيــعٍ هنــاك قــد أرخصُــوهُ طـال مـا قـدْ غـلا علـى السُّوَّام
٣٥. رُبَّ بيــتٍ هنــاك قــد أخرجُــوهُ كـان مـأوى الضِّـعافِ والأيتـام
٣٦. رُبَّ قصْــرٍ هنــاك قــدْ دخلــوه كان من قبلِ ذاك صَعْبَ المرام
٣٧. رُبَّ ذي نعمــةٍ هنــاك ومــالٍ تركـــوه مُحـــالفَ الإعـــدام
٣٨. رُبَّ قــوم بــاتوا بــأجمعِ شَـمْلٍ تركــوا شــملَهُمْ بغيــر نظــام
٣٩. عرِّجــا صــاحبيَّ بالبصــرةِ الــزَّهْ راء تعـريج مُـدنفٍ ذي سـقام

٤٠. فاسْـــألاها ولا جـــوابَ لـــديها ... لســـؤال ومـــن لهـــا بـــالكلام
٤١. أيـن ضوضـاءُ ذلـك الخلـقِ فيهـا ... أيـــن أســـواقُها ذواتُ الزِّحـــام
٤٢. أيـــن فُلْـــكٌ فيهـــا وفُلْـــكٌ إليهـــا ... مُنشـآتٌ فـي البحـر كـالأعلام
٤٣. أيـن تلـك القصـورُ والـدورُ فيهـا ... أيـن ذاكَ البنيـانُ ذو الإحكـام
٤٤. بـــدِّلتْ تِلكُـــمُ القصـــورِ تِـــلالا ... مـن رمـادٍ ومـن تُـراب رُكـامِ
٤٥. سُـلِّطَ البَثْـقُ والحريـقُ علـيهم ... فتـــداعت أركانُهـــا بانهـــدامِ
٤٦. وخلـتْ مـن حُلولهـا فهْـي قَفْـرٌ ... لا تـرى العين بـين تلـك الأكـام
٤٧. غيـــرَ أيْـــدٍ وأرْجُـــلِ بائنـــاتٍ ... نُبـذَتْ بيـنهنَّ أفـلاقُ هـام
٤٨. ووجـــوهٍ قـــد رمَّلتْهـــا دمـــاءٌ ... بـأبي تلكـمُ الوجـوه الـدوامي
٤٩. وطِئـــتْ بـــالهوانِ والـــذُّلِّ قســـراً ... بعـد طـولِ التبجيـلِ والإعظـام
٥٠. فتراهـا تَسْـفي الريـاحُ عليهـا ... جاريـــاتٍ بهبـــوة وقتـــام
٥١. خاشـــعاتٍ كأنَّهـــا باكيـــاتٌ ... باديـاتِ الثغـور لا لابتسـام
٥٢. بـل ألِمَّـا بساحةِ المسـجدِ الجـا ... مـــع إنْ كُنْتُمـــا ذَوِي إلمـــام
٥٣. فاســـألاهُ ولا جـــوابَ لدْيـــهِ ... أيـــن عُبَّـادُهُ الطـوالُ القيـام
٥٤. أيـــنَ عُمَّـــاره الأُلـــى عمَـــروهُ ... دَهْـرَهُمْ فـي تـلاوة وصـيام
٥٥. أيـــن فِتيانـــه الحِســـانُ وجُوهـــاً ... أيـن أشـياخُهُ أولـو الأحـلام
٥٦. أيُّ خَطْـــبٍ وأيُّ رُزْء جليـــلٍ ... نالنـــا فـــي أولئـــكَ الأعمـــام
٥٧. كـم خـذلنا مـن ناسـكٍ ذي اجتهـادٍ ... وفقيـــهٍ فـــي دينـــهِ عـــلَّام
٥٨. وا نـدامي علـى التَّخلُّـفِ عـنهمْ ... وقليـلٌ عـنهُم غَنـاء نِـدامي
٥٩. وا حيـائي مـنهُمْ إذا مـا التقينـا ... وهُـــمُ عنـــد حـــاكم الحُكّـــام
٦٠. أيُّ عُـــذْرٍ لنـــا وأيُّ جـــوابٍ ... حين نُدْعَى على رؤوسِ الأنـامِ
٦١. يـا عبـادي أمـا غَضِـبْتُم لـوجهي ... ذي الجـلال العظـيم والإكـرام

٦٢. أخـــذلتُمْ إخـــوانَكُم وقعـــدْتُمْ عـنهُمُ ويحَكُـم قُعـودَ اللئـام
٦٣. كيـف لـم تعطفـوا علـى أخـواتٍ فـي حِبـال العبيـدِ مـن آل حـامِ
٦٤. لـــم تغـــاروا لغَيْرتـــي فتـــركْتُمْ حُرمـــاتِي لمَـنْ أحَـلَّ حرامـي
٦٥. إنَّ مـن لـم يَغَـرْ علـى حُرُمـاتي غيـرُ كُـفْءٍ لقاصـراتِ الخيـام
٦٦. كيف ترضى الحَوراء بالمرءِ بَعْلاً وهو من دونِ حُرمة لا يُحامي
٦٧. وا حيـائي مـن النَّبـيِّ إذا مـا لامنـي فـيهم أشـدَّ المـلام
٦٨. وانقطـاعي إذا هُـمُ خاصـموني وتـولَّى النبـيُّ عـنهُمْ خصـامي
٦٩. مثِّلُـوا قولـهُ لكُـمْ أيُّهـا النَّـا سُ إذا لامكُـمْ مـع اللُّـوَّام
٧٠. أُمَّتـي أيـنَ كُنْـتُمُ إذْ دَعتْنـي حُـرَّةٌ مـن كـرائمِ الأقـوامِ
٧١. صـرختْ يـا مُحمّـداهُ فهـلّا قـام فيهـا رعـاةُ حقـي مقـامي
٧٢. لـم أجبْهـا إذ كنـتُ مَيْتـاً فلـولا كـان حـيٌّ أجابهـا عن عِظـامي
٧٣. بـأبي تلكُـمُ العِظـامُ عظامـاً وسقَتْها السماءُ صوْبَ الغمام
٧٤. وعليهـا مـن المليـك صـلاةٌ وسـلامٌ مؤكَّـدٌ بسـلام
٧٥. انفـرُوا أيهـا الكـرامُ خِفافـاً وثِقـالاً إلـى العبيـدِ الطَّغـام
٧٦. أبْرَمُـوا أمـرَهُمْ وأنـتُمْ نِيـامٌ سـوءةً سـوءةً لنـوْمِ النيـام
٧٧. صـدِّقوا ظـنَّ إخـوة أمَّلـوكم ورجـوْكُمْ لنبـوةِ الأيـامِ
٧٨. أدْرِكـوا ثـأْرَهُمْ فـذاك لـديْهِم مثـلُ ردِّ الأرواحِ فـي الأجسـامِ
٧٩. لـم تُقِـرُّوا العيـونَ مـنهم بِنَصْـرٍ فـأقِرُّوا عيـونهمْ بانتقـام
٨٠. أنقِـذُوا سَـبْيَهُمْ وقـلَّ لهُـمْ ذا ك حفاظـاً ورعْيَـةً للـذِّمام
٨١. عـارُهُمْ لازمٌ لكُـمْ أيُّهـا النَّـا سُ لأنَّ الأديـانَ كالأرحـام
٨٢. إن قعـدتُمْ عـن اللعـينِ فـأنْتُمْ شـركاءُ اللَّعـينِ فـي الآثـامِ
٨٣. بـادروهُ قبـلَ الرويَّـةِ بـالعَزْ م وقبـل الإسـراج بالإلجـام

٨٤. من غدا سرجُهُ على ظهرِ طِرفٍ فحـــرامٌ عليـــه شـــدُّ الحـــزام
٨٥. لا تطيلـوا المقـام عـن جنَّـة الخـل ـدِ فـأنتمْ فـي غيـر دار مُقـام
٨٦. فاشـتروا الباقيـات بـالعرَضِ الأد ـنـى وبِيعـوا انقطاعـه بالـدَّوام

مناسبة القصيدة:

تأثر ابن الرومي كثيرًا لما أصاب مدينة البصرة من خرابٍ على يد الزنج سنة٢٧٥هـ، وصوّر ما فعلوه بالناس من تعذيب وإذلال، وما ألحقوه بالبصرة من تخريب بعد أن كانت منارةً للعلم والأدب، في قصيدةٍ طويلةٍ هي من أجمل ما قيل في رثاء البلدان؛ لأن ابن الرومي رثاها من خلال إحساسه بالفاجعة التي أصابتها وأصابت أهلها، ومن خلال خوفه من الشرِّ والموت والدمار، وقد صور في هذه القصيدة خراب المدينة وتشرد أهلها، وما لحقهم من شرٍّ، وتأسَّى على تلك المدينة العظيمة.

وابن الرومي وثورته الرائعة في رثاء البصرة، فإنه يثور فيها على الظلم وأهله من الزنج، الذين انتهكوا الحرمات، وقضوا على المقدسات، في أبشع صورة يعرفها البشر، كلها غدر وخيانة، وظلم وقسوة، لا هوادة فيها ولا رحمة، ولا مراعاة للمبادئ الإنسانية والخلقية والحضارية، ثم يستغيث الشاعر بالعالم وبالإنسانية كلها لإنقاذ الحضارة والمقدسات، وردع الطغاة والظالمين في البصرة وغيرها من الأمم(١).

(١) الصورة الأدبية تاريخ ونقد:١٠٦-علي علي صبح- دار إحياء الكتب العربية، وانظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك –ج ٣، ٤، ٧ – دار المعارف بمصر – القاهرة ١٩٧٠ م، ابن الرومي حياته وشعره: كمال أبو مصلح، إبراهيم عبد القادر المازني – ص ٩ – ط ١ – المكتبة الحديثة. تاريخ اليعقوبي – ج ٢ – دار الشريف الرضي – ١٤١٤ هـ- الحموي: معجم البلدان – ج ١ – دار صادر – بيروت – ١٩٥٧م.

***

الوزن والموسيقى:

اختار الشاعر البحر الخفيف ثنائي التفعيلة، وهو يناسب الدعوة إلى استنهاض الأمم، كما يناسب التعبير عن الحزن والأسى، كذلك استعمل الألف الطويلة قبل الروي وأحرف المد، وهي تحمل في طياتها نغمًا شجيًّا.

***

الأفكار الرئيسة للقصيدة إجمالا

جاءت قصيده رثاء البصرة لابن الرومي في ستةٍ وثمانين بيتًا، مكونة من خمس أفكار رئيسة، هذه الأفكار بمثابة مشاهد ينقلها لنا ابن الرومي عبر العصور ليعبر بهذه المشاهد عما كانت عليه البصرة، وما آلت إليه بعد دخول الزنج وتخريبهم لها.

فكان المشهد الأول: وهو عبارة عن المقدمة، ويتحدث فيه عن عدم نومه وبكائه وحزنه على البصرة وما ألم بها من خراب ودمار؛ بسبب الاستيلاء والسلب من الزنج على البصرة، وذلك من البيت الأول إلى البيت السابع.

المشهد الثاني: ويتحدث فيه الشاعر عن هول المصيبة ووقعها على نفسه، وعن الحسرة واللهفة والندم الذي ألمَّ به بعدما وقع بالبصرة من دمار وهلاك على أيدي الزنج، وذلك من البيت الثامن إلى البيت الثالث عشر.

المشهد الثالث: وهو يصوِّر لنا الزنج واستيلاءهم على البصرة وما ألحقوا بها من دمار وخراب، وذلك من البيت الثالث عشر إلى البيت الثامن والثلاثين.

المشهد الرابع: وهو ينقل لنا صورة البصرة وما كانت عليه وما حدث لها من تحول، وذلك في البيت من التاسع والثلاثين إلى الثامن والخمسين.

المشهد الخامس والأخير: وهو حث الشاعر وإشعال الحمية في صدور أهل البصرة؛ بهدف الأخذ بالثأر وقتل العدو والانتقام منه أشد الانتقام، ويمثل ختام القصيدة، وذلك من البيت التاسع والخمسين إلى السادس والثمانين.

الشرح والتحليل

المشهد الأول: المقدمة ويتحدث فيه عن عدم نومه وبكائه وحزنه على البصرة وما ألم بها من خراب ودمار بسبب الاستيلاء والسلب من الزنج على البصرة، فيقول:

٨٧. **ذادَ عن مُقْلِتي لذيذَ المنامِ شُغلها عنهُ بالدموعِ السجامِ**

٨٨. **أيُّ نومٍ من بعد ما حل بالبصْ رَةِ من تلكمُ الهناتِ العظام**

٨٩. **أيُّ نومٍ من بعد ما انتهك الزّنْ جُ جهاراً محارمَ الإسلام**

٩٠. **إنَّ هذا من الأمورِ لأمْرٌ كاد أن لا يقومَ في الأوهام**

٩١. **لرأينا مُسْتَيْقظين أموراً حسبُنا أن تكونَ رُؤيا منام**

٩٢. **أقدم الخائنُ اللعينُ عليها وعلى الله أيَّما إقدام**

٩٣. **وتسمَّى بغير حقٍّ إماماً لا هدى اللَّهُ سعيَه من إمام**

عندما نتأمل في كلام ابن الرومي نجده أنه قد صور وحشية العدو الزنجي والذي قتل البشر ودمَّر الحجَر وخرَّب الشجَر بما يتوافق مع ما يحدث الآن وكأن ابن الرومي يعيش بيننا الآن يصف في هذه القصيدة ما يحدث ويحصل ببعض بلداننا العربية.

والشاعر في مطلع قصيدته يعبر عمّا أصابه من حزن وأسى لسقوط مدينة البصرة، فبدأها بالفعل الماضي الذي يدل على وقوع الحدث، وهو غياب النوم عن عينه، فهو دائم السهر بسبب البكاء المتواصل على ما أصاب هذه المدينة منعه عن النوم، واعتمد على المحسن اللفظي (التصريع) بين (المنام – السجام) والذي يعطي نغمة موسيقية تترك حلاوة وأثرًا في النفس؛ بغرض لفت وجذب

انتباه السامع، حيث أراد ابن الرومي أن يشرك متلقيه في حزنه الذي أصابه، وهنا تأتي أهمية مطلع القصيدة، ومدى اهتمام الشاعر به، فالمطلع هو العتبة الأساسية من عتبات النص، وهو الهدف الرئيس من القصيدة، يندرج تحته أهداف فرعية، ولهذه الأهمية للمطلع "عنى النقاد به عنايةً فائقةً، فوجَّهوا أنظارَ الشعراء إلى أن يبذلوا غاية جهدهم إلى الإجادة فيه؛ إدراكًا لقوة الأثر الذي يتركه هذا المطلع في النفس، وما يحدثه من جذبٍ للسامع بحيث يصرف همَّه إلى الإصغاء والاستيعاب"(١).

ويبدأ ابن الرومي قصيدته بوصف الحالة النفسية والمزاجية التي شعر بها لمَّا رأى الخراب والدمار قد حلَّ بمدينة البصرة، ويقول بأن النوم لم يعد يشاغل عينيه؛ لأنهما شغلتا وملئتا بالدموع الغزيرة الكثيرة؛ لما حلَّ بالبصرة وأهلها، ويُجَلِّى هذا المعنى ويوضحه عن طريق الاستعارة المكنية التبعية في الفعل (ذاد)؛ حيث شخَّص شُغلَ عينيه وأنه قام بدورِ شخصٍ يفعل ذلك، وحذف ذلك الشخص وأبقى شيئًا من لوازمه وهو الذود، والمقلة هي العين كلها، والسجام يعني انهمار الدمع من العين؛ مما يزيد في اللوعة والحسرة.

ويؤكد الشاعر حسرته ولوعته عن طريق الاستفهام الإنكاري، وهو في استفهامه وتساؤله لم يوجه سؤاله لأحدٍ بعينه بل يسأل نفسه فيقول أي نوم يأتيني وأنا دائم التفكير بما حلّ بالبصرة من دمار ومصائب طردت النوم وأرقت التفكير "أي نوم من بعد ما حل"؟، فالجملتان كلتاهما استفهاميتان، والاستفهام ليس على حقيقته، وإنما خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي، فيسأل نفسه متعجبًا

(١) مدخل إلى علم الأسلوبية، شكري محمد عياد، ص٥٨، دار الكتاب، القاهرة–مصر، ط٣، ١٩٩٦م.

مستغربًا، أيُّ نوم هذا الذي يدركه أو يحل به وقد نزل بمدينة البصرة من المصائب والكوارث ما يخبل الحليم ويخرس الكليم؟!

وفي تكراره السؤال مرة بعد مرة تأكيدٌ منه على المعنى، "فالشاعر في مبالغته وتدرجه بالمعنى، صورة بعد صورة، إنما هو يكرر في الآن ذاته؛ فالمبالغة إذن مبالغة تكرارية، والتدرج تدرج تكراري، يستعيد المعنى ذاته، يوسعه، يفصله ويعلله ويبالغ فيه"(١).

وكيف ينام بعدما رأي بعينيه محارم الإسلام تنتهك وحدود الله تعالى يعتدى عليها، حيث القتل والتخريب والتدمير، وهذا كان قد حدث جهارًا نهارًا على مرأى ومسمع من الحاضرين جميعًا.

ثم يقول إنَّ ما حلَّ بالبصرة من إحَنٍ ومحَنٍ لو سلم الإنسان نفسه للأوهام – وهي الأشياء التي لا تصدق– وأطلق فكره وعقله للخيال فإن ما حلَّ بها أعلى وأعتى وأقسى من ذلك بكثير.

ثم يقول إننا رأينا ونحن في يقظةٍ تامةٍ أمورًا جسامًا عظامًا ضخامًا من الكوارث والنوازل حلَّت بالبصرة، لا يمكن إلا أن تقع إلا فيما يراه النائم في نومه.

وبعد ذلك بدأ يسرد بعض ما فعله هذا العدو الزنجي الخائن اللعين المحتل المختل؛ حيث إنه تجرأ على مدينة البصرة وتجاسر على محارم الله تعالى، شأنه في ذلك شأن أي عدو مغتصب ليس عنده أثارةٌ من دينٍ ولا ذرةٌ من رحمةٍ.

وهذا العدو الغاشم ادعى باطلًا أنه الإمام، وخلع على نفسه هذا اللقب، وبئست الإمامةُ هي التي تأمر بقتلٍ وتشريدٍ، ثم يستخدم ابنُ الرومي أسلوبَ الدعاء عليه بأن لا يوفق الله سعيه ولا يهديه سواء السبيل.

---

(١) رثاء ابن الرومي بين الاتباع والابتداع، قصيدة رثاء البصرة نموذجا، علي أصغر حبيب، ص٧٨، مجلة إضاءات نقدية، ١٣٩٠هـ – ٢٠١١م.

المشهد الثاني: ويتحدث فيه الشاعر عن هول المصيبة ووقعها على نفسه وعن الحسرة واللهفة والندم الذي ألمَّ به بعدما وقع بالبصرة من دمار وهلاك على أيدي الزنج من البيت الثامن إلى البيت الثالث عشر. فيتحسر ابن الرومي على البصرة مدينة العلم واللغة والأدب، ويتلهف بقوله: (لهف نفسي) يعني يا حسرة نفسي، والنداء هنا خرج عن معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي الذي يفيد التحسر واللوعة الشديدة، وألم الحسرة أشد وأوجع من ألم الضرام؛ والضرام هو الوقود الذي تشتعل به وتتوقد وتتوهج، يتحسر على البصرة؛ لأنها معدن الخيرات ومركز البركات هذا التحسر جعله يعض بنانه؛ كناية عن الندم والحزن الشديد، اقتباسًا من قول الله تعالى:﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[الفرقان: ٢٧].

لهفَ نفسي عليكِ أيَّتُها البص ... رةُ لهفاً كمثل لفحِ الضِّرام
لهف نفسي عليك يا معدن الخي ... رات لهْفاً يُعضُّني إبهامي
لهف نفسي يا قُبَّةَ الإس ... لام لهفاً يطولُ منه غرامي
لهف نفسي عليكِ يا فُرضةَ البل ... دانِ لهفاً يبْقى على الأعوام
لهف نفسي لجمعكِ المتفاني ... لهف نفسي لِعِزِّكِ المُستضام
بينما أهلُها بأحسنِ حالٍ ... إذ رماهمْ عبيدُهمْ باصطلامِ
دخلوها كأنهم قِطَعُ اللَّيـ ... ـلِ إذا راحَ مُدْلَهِمَّ الظلام
طلعُوا بالمُهَنَّداتِ جِهْراً فألقتْ ... حملها الحاملات قبل التَّمام
وحقيقٌ بأن يُراع أناسٌ ... غوفصوا من عدوهم باقتحام

ويتحسر على البصرة؛ لأنها قبة الإسلام ومركزه الإشعاعي العلمي والعملي، مستخدما في ذلك أسلوب النداء المراد به التحسر والتندم، ومستعملا التشبيه البليغ ويكأنها قبة الإسلام نفسه، وتحسره هذا دائبٌ دائمٌ لا ينفكُّ عنه،

وهذا ما تعنيه كلمة (غراما) التي تعني الحب والعشق الشديد الدائم اللازم، وهو اقتباس من قول الله جل جلاله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[الفرقان: ٦٥].

ويتحسر عليها حيث إنها كانت بمثابة واسطة العقد بالنسبة للبلدان، فالفُرضة[١] أهم جزء في الشيء، وهو يستعين على بيان مكانتها ومنزلتها بالتشبيه الموضح والبارز للمعنى، ثم يتحسر على الجمع الذي كان يغشاها في كل أوانٍ وزمانٍ، حيث حب الناس المنتهي لها، ويتحسر كذلك على عزها الذي استزله هؤلاء الزنوج، حيث كان أهلها يعيشون عيشة عزيزة كريمة وبأحسن الأحوال، ثم فاجأهم هؤلاء العبيد، والاصطلام هو الاستئصال والإبادة، والتعبير بالاصطلام يرسم صورة الهلاك والدمار الذي أحدثه هؤلاء العبيد الزنوج بهذا البلد.

ويصور حالة دخولهم على البصرة بالتشبيه البلاغي الرائع الذي أداته (كأن)، حيث كانوا أشبه ما يكونون في شدة السواد للون بشرتهم وثيابهم بقطع الليل الشديد السواد، وهو ما يفهم من تعبيره بكلمة (مدلهم)؛ أخذا من قول الله تعالى في وصف الجنتين:﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٤]، فلشدة اخضرارهما تنظر إليهما وكأنهما سوداوان، وهو يصور حال البصرة، صور حالته وما أصابه من حزن وأسى، يؤكد ذلك بقوله: " يُعضُّني إبهامي"، كناية عن الحسرة والندم.

والشاعر في مقطوعته السابقة ألح على التكرار في قوله: "لهف نفسي عليك يا معدن الخيرات، لهف نفسي يا قبة الإسلام، لهف نفسي عليك يا فرضة البلدان، لهف نفسي لجمعك المتفاني، لهف نفسي لعزك المستطام، والغرض من التكرار هو نقل الشاعر لمخاطبه ومتلقي قصيدته حجم الحسرة والأسى والحزن،

(١) الفرضة من النهر: مشرب الماء منه، ومن البحر محط السفن، اللسان: (فرض).

وهول المصيبة التي أحلت بالبصرة، فالنفس تأسى على مناقبها السابقة في عزِّها وجلالِها؛ ولهذا كرَّر "لهف نفسي" خمس مرات متواليات؛ ليخلق جوًّا خاصًّا توحي به كلمة "لهف" وهي تشير إلى الخشية والحسرة، الخشية من تفاقم الخطب، ومن المصير المرعب، والحسرة على ما حصل من فواجع. إن هذا التلهف المتلهب من زفرات شاعرنا المتأججة بنار الأسى يصور فتنة تثلم مدينة سمحاء، يرمز بها إلى الإسلام الذي ترفع شعاره، بحصانة أبنائه وحصافته؛ وبهذا التلهف قد سجل الشاعر هذه الثورة الزنجية بنفس طويل، وإن ضن بتقديره التاريخ، فإن على الفن والأدب أن يعرف هذا القدر)[1].

المشهد الثالث: وهو يمثل لنا الزنج واستيلاءهم على البصرة وما ألحقوا بها من دمار وخراب، وهو من البيت الثالث عشر إلى البيت الثامن والثلاثين.

يقول ابن الرومي:

بينمـــا أهلُهـــا بأحســـنِ حـــالٍ إذ رمـــاهمْ عبيـــدُهمْ باصـــطلامِ

دخلوهـــا كـــأنهم قِطـــع اللّـــيـ ـلِ إذا راحَ مُـــــدْلَهِمَّ الظـــــلام

طلعُـــوا بالمُهَنَّـــداتِ جِهْـــراً فألقـــتْ حملهـــا الحـــاملات قبـــل التَّمـــام

وحقيـــقٌ بـــأن يُـــراع أنـــاسٌ غوفصـــوا مـــن عـــدوهم باقتحـــام

في هذه الأبيات يصور الشاهر هول الفاجعة، وينقلها لنا في أبشع صور، مستخدمًا كلَّ الفنون البلاغية التي تساعده في إبراز الصورة؛ حتى يستنفر القوم ويشحذ الهمم في الدفاع عن إخوانهم، ضد هؤلاء الغاصبين المعتدين الذين ما تركوا سوءًا ولا رجسًا إلا وقاموا به من أفعال غادرة كلها مذلة وهوان.

فهؤلاء الزنوج اقتحموا تلك البلدة العامرة وكأنهم قطع من الليل، فشبههم في سواد لونهم بالليل في شدة سواده، وهم يحملون في أيديهم المهندات: كناية عن

(١) ابن الرومي، عبد المجيد الحر، ص١٨٧، بيروت، دار الكتب العلمية، ط: ١٩٩٢م.

السيوف الهندية الصارمة الحاسمة، ومن هول منظرهم وشدة هولهم لو اطلعت عليهم الحوامل من النساء لأسقطن حملهن، وفي هذا التعبير كنايةٌ عن شناعة المنظر وفداحة المظهر.

ثم يقول يحق لكل من رأى منظرا مثل هذا أن يقشعر بدنه ويرتجف قلبه ويفزع الناس فزعا شديدًا، حيث فوجئوا بهذا الهجوم العنيف، والغفص هو المفاجأة والأخذ بشدة ومساءة، وصوَّر بناء الفعل (غوفصوا) للمجهول هولَ هذه المفاجأة، وشدة هذا الهجوم.

أيَّ هَـــوْل رأوْا بهـــمْ أيّ هَـــوْلٍ حُـقَّ منـه تشـيبُ رأسُ الغـلام
إذ رمـــوْهُمْ بنـــارهم مـــن يمـــينٍ وشِـــمال وخلفِهـــمْ وأمـــام

بالاستفهام المجازي الذي غرضه التهويل، يصور الشاعر الفزع والهلع الذي أصاب أهل البصرة، ذلك الفزع الذي شيب الغلام قبل الأوان، كناية عن العجز المبكر الذي أصاب الغلمان من هول المنظر، وهذا الفزع والهول في محله، حيث أن المحتلين المختلين الغاصبين هجموا عليهم من كل ناحية من النواحي يمينًا وشمالًا وخلفًا وقدامًا وأحاطوهم بالنار من هذه الاتجاهات كلها؛ عبر بذلك الطباق في قوله: "يمين وشمال، خلفهم وأمام" ذلك التضاد الذي ساهم في إبراز الصورة وتأكيد المعنى.

كـم أغصُّـوا مـن شـاربٍ بشـراب كـم أغصُّوا مـن طـاعمٍ بطعـام
كـــم ضـــنينٍ بنفســـهِ رامَ مَنْجـــىً فتلقّـــوا جبينـــه بالحســـام
كـــم أخٍ قـــد رأى أخـــاهُ صـــريعاً تـرِبَ الخَـدِّ بـينَ صَـرْعى كـرامِ
كـــم أبٍ قـــد رأى عزيـــزَ بنيـــه وهْـوَ يُعلَـى بصـارمٍ صمصـام
كـــم مُفـــدّىً فـــي أهلـــهِ أسْـــلمُوه حـين لـم يحْمِـه هنالـك حـامي
كـــم رضـــيع هنـــاكَ قـــد فطمـــوه بشبا السيف قبل حينِ الفطام

هذه الأبيات عبارة عن لوحة فنية يصور فيها الشاعر كثرة المآسي التي أصابت القوم، مستخدما "كم" التي تفيد الكثرة، مكررا إياها تسع مرات استقصى من خلالها أطياف الناس باختلاف أجناسهم وأطيافهم، فصور أنه بسبب هذا الغزو انقلبت حياة الناس إلى غصةٍ ومرارةٍ يشعر بها كلُّ شاربٍ وكلُّ طاعمٍ، فلا يجدون لذةً لشراب، ولا متعةً لطعامٍ من شناعة وفظاعة ما أتى به هؤلاء العبيد من رجسٍ ونجسٍ، بل يصور ابنُ الرُّومي أن كثيرًا من الناس كانوا يضنون على أنفسهم، أي يحافظون على أرواحهم ويصونونها، فجاء هؤلاء المحتلون المختلون فأشهروا عليهم السلاح والسيوف، فأوقعوا بهم الضرر والأذى بلا رحمة ولا شفقة.

ويصور كثرة القتلى والجرحى من جراء هذا الاقتحام بأن كثيرًا من الإخوة رأوا إخوتهم بين قتيلٍ وجريحٍ، وكثيرا من الآباء رأوا أحب أبنائهم وأعزهم تعلوهم السيوف الصارمة القاطعة، وفي هذه المشاهد حسرةٌ وغمٌّ يعجز بشرٌ عن التعبير عنه، فأي نكالٍ بعد هذا النكال، وأي عذابٍ بعد هذا العذاب، وكثير من الأبناء كان أهله يفدونه بأرواحهم وأجسادهم، ولكنهم أسلموه لهؤلاء الأعداء قسرًا وجبرًا، ولم يستطع خادمٌ أن يحميه ولا مدافعٌ أن يدفع عنه.

حتى الرضع من الأطفال لم تفطمه أمه الحنون، وإنما فطمه شبا السيف أي حد طرف الشيء، والقول كناية عن قتل أمِّ الرضيع بسيوفهم، فانفطم قسرًا وقهرًا وليس اختيارًا.

كـــم فتـــاةٍ بخـــاتِمِ اللهِ بِكـــرٍ ... فضـحوها جَهْـراً بغيـر اكتتـام

كـم فتـاةٍ مصـونة قـد سـبوْها ... بـارزاً وجههـا بغيـر لثـام

صـبحوهُمْ فكابـدَ القـومُ مـنهم ... طـولَ يـومٍ كأنـه ألـفُ عـامِ

ألـفُ ألـفٍ فـي سـاعةٍ قتلـوهُمْ ... ثـم سـاقوا السِّـباءَ كالأغنـام

مـن رآهُـنَّ فـي المسـاقِ سـبايا ... داميـاتِ الوجـوهِ للأقـدام

مـن رآهـنَّ فـي المقاسـم وسْـطَ ال ... زنـج يُقسَـمْنَ بينـهم بالسِّـهام

مـــن رآهُـــنَّ يُتّخـــذنَ إمـــاءً ... بعـد ملْـكِ الإمـاء والخُـدَّام

ومن فداحة الخطب وهول المصيبة وعظم الكارثة أنهم اعتدوا على عرض كثير من العذارى الأبكار نهارًا جهارًا أمام أعين الناس دون تسترٍ وتكتمٍ وتخفٍ، موضحًا المفارقة في حال النساء قبل وبعد الاعتداء بالطباق بين قوله: "جهر واكتتام" وبين قوله: "مصونة، وغير لثام"، فقد أسروا كثيرا من الفتيات اللواتي كن مصوناتٍ مختفياتٍ وراء نقابهن وحجابهن وبيوتهن سبوْهنَّ وقد كشفوا عن وجوههنَّ، وكلُّ المشاهد السالفة يشيب لها رأسُ الوليدِ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول: هؤلاء الزنوج هجموا على البصرة صباحًا مما تسبَّب في مكابدة أهلها، يعني شقاءهم وتعبهم ونصبهم اليوم كلَّه، ومر عليهم اليومُ كأنه ألف عامٍ

وقتلوا عددًا يزيد عن ألف ألف من الناس يعني قتلوا حوالي مليون من الناس، وإن كان العدد ليس على حقيقته، لكنه يصور كثرة القتلى والصرعى والجرحى، كل هذا في وقتٍ قليلٍ لا يزيد عن ساعةٍ من الزمن، وسبوا كثيرًا من الخلق كمن يسوق أغناما أمامه كما في قوله: "ثم ساقوا السِّباءَ كالأغنام"، وابن الرومي يستعين بالتشبيه هنا لتصوير مدى الذلة والمهانة التي أصابت أهلَ البصرة من جرَّاء هذا الهجوم الغاشم.

والذي يطالع منظر السبايا ومظهرهم والزنوج يسوقونهم في سيرهم يطالع ويشاهد الدم يعلو جباههم ويشملهم حتى الأقدام، فقوله "دامياتِ الوجوهِ للأقدام" كناية عن كثرة الجروح من الضربات التي أصابتهم من اقتحام العدو.

والذي يرى النساء السبايا وهم بين الزنوج يقسمونهن، كل واحد منهم يأخذ نصيبه وحظه منهن وقد تحوَّلْن إلى إماءٍ بعد أن كُنَّ أحرارًا وعندهنَّ إماءٌ يقمْنَ على خدمتهنَّ تحولْن إماءً بملك اليمين.

وقد عبر عن كل ما سبق بالتعريف بالموصولية، بغرض التهويل من المنظر الشنيع، الذي يستفز أي إنسان، فما بالنا بالمسلمين الذين يغارون على عرضهم وشرفهم، ولا يسمحون لأحد أن ينظر إلى نسائهم بطرف عينه، لا أن

يسبيهم ويغتصبهم على مرأى ومسمع من الجميع، وكأن الشاعر يقول لهم من المتصدي لهذا؟ من المدافع؟ من حامي الديار؟

وابن الرومي يقول إنَّ قلبه تشتعل فيه النار اشتعالا شديدًا عندما يتذكر هذه المناظر المرعبة المرهبة، وتذكره لهذه المشاهد توجعه وتؤلمه مرارة الإرغام أي مرارة الذل والانكسار.

مـــا تـــذكرتُ مـــا أتـــى الـــزنج إلا ... أُضـــرم القلـــب أيّمـــا إضـــرام

مـــا تـــذكرتُ مـــا أتـــى الـــزنج إلا ... أوجعَتْنـــي مـــرارةُ الإرغـــام

رُبَّ بيـــعٍ هنـــاك قـــد أرخصُـــوهُ ... طـال مـا قـدْ غـلا علـى السُّوَّام

رُبَّ بيـــتٍ هنـــاك قـــد أخربُـــوهُ ... كـان مـأوى الضِّـعافِ والأيتـام

رُبَّ قصْـــرٍ هنـــاك قـــدْ دخلـــوه ... كان من قبلِ ذاك صَعْبَ المرام

رُبَّ ذي نعمـــةٍ هنـــاك ومـــالٍ ... تركـــوه مُحـــالفَ الإعـــدام

رُبَّ قـــوم بـــاتوا بـــأجمعِ شَـــمْلٍ ... تركـــوا شـــملَهُمْ بغيـــر نظـــام

فقوله: " أُضرم القلب أيّما إضرام" كناية عن شدة حزنه وتأسفه على ما صار إليه الحال بأهل البصرة، فذل بعد عز، وانكسار وهوان بعد إعظام وإجلال.

ثم يقول إنَّ كثيرًا من البيوع التي كان ثمنها عاليًا غاليًا تسببوا في رخصه، وقد ظلت عالية الثمن زمنًا طويلًا، وإنَّ كثيرا من البيوت كانت مسكنًا وملاذًا آمنًا لكل ضعيف ويتيم تم سلبها ونزعها، وكثيرا من القصور الحصينة المتينة كان صعب الوصول إليها قد استباحوها وسلبوها.

وكثيرا من ذوي الثراء والغنى والنعيم أصبحوا بهذا الغزو معرضين للإعدام وفقد حياتهم بعد أن كانوا منعمين ومترفين، وأقوام كثيرة كانوا مجتمعين ينعمون بالألفة والمحبة ولم الشمل قد مزَّقهم وفرَّقهم الزنوج شرَّ ممزَّق دون نظام.

ومما أسهم في بناء المشهد في هذه الصورة الفنية هو التكرار، في استخدام كم، ومن الموصولية كما أن ابن الرومي كرر في هذه الأبيات كلمة رب، فيقول:

"رب بيت"، "رب قصر"، "رب ذي نعمة"، "رب قوم"، "رب بيع"، (هذا النوع من التكرار اللفظي يحقق للنص بناءه الهندسي والتركيبي؛ إذ إن المقصود منه تقديم صورة البصرة بين القديم والحديث، والتحول من العمار إلى نقيضه، فالتكرار اللفظي له دور في تحقيق التماسك النص، وربط الأحداث في ذاكرة المتلقي، واكتمال الغرض الرئيسي منه في ربط أول الخطاب بآخره)[١].

المشهد الرابع: بعد أن صور لنا الشاعر عن الخراب والدمار الذي لحق بالبصرة على يد الزنج في مشهد يملأه الحزن والأسى عليها وعلى فتيانها وفتياتها، رجالها ونسائها، أطفالها وشيوخها، حدائقها وقصورها، انتقل إلى مشهد مقابل للمشهد السابق، حيث يصور لنا الأيام الخوالي في البصرة، ولا يزال الحزن يخيم على أبياته، حزن على ما كان وعلى ما صارت إليه الآن، يقول:

عرِّجا صاحبيَّ بالبصرةِ الزَّهْ	**راء تعريج مُدنفٍ ذي سقام**
فاسْألاها ولا جوابَ لديها	**لسؤال ومن لها بالكلام**
أين ضوضاءُ ذلك الخلقِ فيها	**أين أسواقُها ذواتُ الزِّحام**
أين فُلْكٌ فيها وفُلْكٌ إليها	**مُنشآتٌ في البحر كالأعلام**
أين تلك القصورُ والدورُ فيها	**أين ذاكَ البنيانُ ذو الإحكام**
بدِّلتْ تِلكُمُ القصورِ تِلالا	**من رمادٍ ومن تُراب رُكامِ**
سُلِّطَ البَثْقُ والحريقُ عليهم	**فتداعت أركانُها بانهدامِ**
وخلتْ من حُلولها فهْي قَفْرٌ	**لا ترى العين بين تلك الأكام**
غيرَ أيْدٍ وأرْجُلٍ بائناتٍ	**نُبذَتْ بينهنَّ أفلاقُ هام**

(١) قصيدة رثاء البصرة لابن الرومي دراسة نصية، منيف بن سعود بن سمير الحربي، حولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، ص٣٢٠١، ٣٢٠٠، المجلد السادس والعشرون، الجزء الثالث، ديسمبر ٢٠٢٢م.

ووجـــوهٍ قـــد رمَّلتْهـــا دمـــاءٌ ... بـأبي تلكـمُ الوجـوه الـدوامي
وطِئـــتْ بـــالهوانِ والـــذُّلِّ قســـراً ... بعـد طـولِ التبجيـلِ والإعظـام
فتراهـــا تَسْـــفي الريـــاحُ عليهـــا ... جاريـــاتٍ بهبـــوة وقتـــام
خاشـــعاتٍ كأنَّهـــا باكيـــاتٌ ... باديـاتِ الثغـور لا لابتسـام
بـل ألِمَّـا بسـاحةِ المسـجدِ الجـا ... مـــع إنْ كُنْتُمـــا ذَوِي إلمـــام
فاســـألاهُ ولا جـــوابَ لدْيـــهِ ... أيـن عُبَّـادُهُ الطـوالُ القيـام
أيـــنَ عُمَّـــاره الأُلـــى عمَـــروهُ ... دَهْـرَهُمْ فـي تـلاوة وصـيام
أيـــن فِتيانـــه الحِســـانُ وجُوهـــاً ... أيـن أشـياخُهُ أولـو الأحـلام
أيُّ خَطْـــبٍ وأيُّ رُزْء جليـــلٍ ... نالنـا فـي أولئـكَ الأعمـام
كـم خـذلنا مـن ناسـكٍ ذي اجتهـادٍ ... وفقيـهٍ فـي دينـهِ عـلَّام
وا نـدامي علـى التَّخلُّـفِ عـنهمْ ... وقليـلٌ عـنهُم غَنـاء نِـدامي
وا حيـائي مـنهُمْ إذا مـا التقينـا ... وهُـمُ عنـد حـاكم الحُكّـام

وابن الرومي تشع من أبياته تلك الصورة الحزينة والمصيبة المفجعة التي حلت بالشاعر بعد مصاب البصرة، فراح يصوغ حزنه وألمه بألفاظٍ تعكس مقدار الحرقة التي في قلبه، والألم الذي يعتصره، فيرى أن بكاءه لا يشفي وحده، فيطلب من أصحابه التعريج على البصرة على طريقة امرئ القيس في معلقته التي يخاطب صديقيه، فيقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل[1]
وقوفا بها صحبي على مطيهم ... يقولون: لا تهلك أسى وتجمل

(١) ديوان امرؤ القيس، عبد الرحمن المصطاوي، ص٢٢، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

يقال في خطاب امرئ القيس لاثنين، أنه "خاطب صاحبيه، وقيل: بل خاطب واحدًا، وأخرج الكلام مخرج الخطاب مع الاثنين؛ لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع"(١).

يقول ابن الرومي:

عرِّجا(٢) صاحبيَّ بالبصرةِ الزَّهْ راء تعريج مُدنفٍ(٣) ذي سقام

فاسْألاها ولا جوابَ لديها لسؤال ومن لها بالكلام

فابن الرومي "حذا حذو الجاهليِّين في النداء؛ فعندما أراد أن ينقل إلى السامع صورة محسوسة تتملؤها وسائل الإدراك بوضوح، طرح باب التعبير الجاهلي بقوله: "عرجا صاحبي" ثم (فاسألاها)(٤).

يخاطب الشاعر صاحبيه طالبًا منهما بصيغة الأمر المجازي في (عرجا، اسألاها)، أن يمرا ببطء كالرجل المريض؛ كناية عن الوقوف طويلا دون التعجل،

---

(١) وإنما فعلت العرب ذلك؛ لأن الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين: راعي إبله وراعي غنمه، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة، فجرى خطاب الاثنين على الواحد لمرونة ألسنتهم عليه، ويجوز أن يكون المراد به: قف قف، فإلحاق الألف أمارة دالة على أن المراد تكرير اللفظ، كما قال أبو عثمان المازني في قوله تعالى: "قال رب ارجعون" (المؤمنون:٩٩)، المراد به ارجعني ارجعني ارجعني، جعلت الواو علما مشعرا بأن المعنى تكرير اللفظ مرارا، وقيل: أراد قفن على جهة التأكيد فقلب النون ألفا في حال الوصل؛ لأن هذه النون تقلب ألفا في حال الوقف، فحمل الوصل على الوقف، لأن هذه النون تقلب ألفا في حال الوقف، فحمل الوصل على الوقف"، ينظر ديوان امرئ القيس، عبد الرحمن المصطاوي، ص٢٢، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

(٢) عرّج بالمكان: نزل به، مر به وتوقف عنده، اللسان مادة عرج.

(٣) مدنف: من أضناه الحب وأتعبه، اللسان مادة دنف.

(٤) رثاء ابن الرومي بين الاتباع والابتداع، علي أصغر حبيب، ص٨١، إضاءات نقدية، العدد الثالث، ١٣٩٠هـ ٢٠١١م.

ليتأملوا فيها ويستطيعوا تقبل الوضع الذي صارت عليه، والحال التي يطلب الشاعر من صاحبيه أن يكونا عليه من سقم يتوافق مع حال البصرة وحال الشاعر نفسه. فعرجا على البصرة الجميلة الزاهية، فسألاها عن حالها كيف هي الآن؟ وكيف كانت من قبل، فالبيتين فيهم إيجاز قصر، حيث عبر باللفظ القليل عن المعنى الكثير، ولا جواب لديها لسؤالٍ ومن لها بالكلام؟ وقوله فسألاها: مجاز مرسل علاقته المحلية، ذكر المحل وأراد الساكنين؛ فيطلب الشاعر من صاحبيه أن يسألا مدينة البصرة عن أحوالها، لكنه مدرك بأنها لم تستجبْ، ولا يوجد بها من يتكلم؛ لأن الزنج قتلوا جميع ساكنيها، وأكد هذا بالطباق بين السؤال والجواب، والتعبير بالموصولية في قوله: "ومن لها بالكلام؟" وهو استفهام إنكاري، أي لا يوجد أحد.

وقد أجمل الشاعر في قوله: "فاسألاها"، ثم فصل بعد ذلك فذكر الأسئلة التي تدور بخلده وهي:

أيـن ضوضـاءُ ذلـك الخلـقِ فيهـا أيـــن أســـواقُها ذواتُ الزِّحـــام

أيـــن قُنْـــكٌ فيهـــا وقُنْـــكٌ إليهـــا مُنشـــآتٌ فـــي البحـــر كـــالأعلام

أيـن تلـك القصـورُ والـدورُ فيهـا أيـــن ذاكَ البنيـــانُ ذو الإحكـــام

بالاستفهام المجازي المتكرر بغرض الحسرة والألم على ما ألمَّ بالبصرة، فالشاعر يصف الشاعر حال البصرة قبل نكبتها، فأسواقها عامرة مزدحمة تعج بالناس، ويصف أحوالها بعد النكبة حيث غابت الضوضاء عن أسواقها، وانعدمت حركة المارة في أسواقها بعد سقوطها بيد الزنج، ويتساءل الشاعر عن كل شيء قد كان في البصرة ولم يتبق منه شيءٌ الآن، وقوله: "أين ضوضاء ذلك الخلق فيها؟ أينَ أسواقُها ذواتُ الزِّحامِ؟" كنايةٌ عن الحركة والازدهار التجاري بمدينة البصرة قبل سقوطها.

"أين فلكٌ منها وفلكٌ إليها منشآت في البحر كالأعلام" صورةٌ فنيةٌ: صوَّر فيها السفن بصورة الجبال الشامخة الطويلة، فهو يتساءل عن حركة السفن الدائبة منها وإليها قبل سقوطها والتي كانت مشرعة الأعلام كالجبال الشامخة في وسط البحر لعلوها وضخامتها، وهذا التشبيه للفلك مقتبسٌ من قول المولى سبحانه وتعالى: "وَلَهُ الجَوَارِ الْمُنشَآتِ فِي البَحْرِ كَالْأَعْلَامِ" (سورة الرحمن: آية ٢٤)، وقد أبدع الشاعر في رسم حركة الفلك، فأتى بالطباق في قوله: (فلك فيها وفلك إليها) وفيه دلالة قوية على الحركة المستمرة في البصرة وازدهار التجارة فيها، فكانت الفلك لا تهدأ، لكن تلك الحركة توقفت ولم يعد لها أثرٌ بعد سقوطها بيد الزنج.

بـــدِّلتْ تِلكُـــمُ القصـــورِ تِـــلالا ... مـــن رمـــادٍ ومـــن تُـــراب رُكـــامِ
سُـــلِّطَ البَثْـــقُ والحريـــقُ علـــيهم ... فتـــداعت أركانُهـــا بانهـــدامِ
وخلـــتْ مـــن حُلولهـــا فهْـــي قَفْـــرٌ ... لا تـرى العـين بـين تلـك الأكـام
غيـــرَ أيْـــدٍ وأرْجُـــلٍ بائنـــاتٍ ... نُبـــذَتْ بيـــنهنَّ أفـــلاقُ هـــام
ووجـــوهٍ قـــد رمَّلتْهـــا دمـــاءٌ ... بـــأبي تلكـــمُ الوجـــوه الـــدوامي
وطِئـــتْ بـــالهوانِ والـــذُّلِّ قســـراً ... بعـد طـولِ التبجيـلِ والإعظـام
فتراهـــا تَسْـــفي الريـــاحُ عليهـــا ... جاريـــاتٍ بهبـــوة وقتـــام
خاشـــعاتٍ كأنَّهـــا باكيـــاتٌ ... باديـــاتِ الثغـــور لا لابتســـام

بعد أسئلته أخذ يجيب عليها؛ فيقول إن الدور والقصور قد تبدلت رمادًا بعد اندفاع الزنج عليها وتدافعه كالسيل، يتضح هذا من قوله: (سُلِّطَ البَثْقُ)، وكيف كان للطباق أثرٌ كبيرٌ في تأكيد صورة الدمار حيث جمع بين الذندين وهو (البثق والحرق) كأن الأشياء التي لا تجتمع في الحقيقة، اجتمعت على البصرة للقضاء عليها، فكانت النتيجة أن تداعت أركانها الثابتة فتهدمت، وخلت من حلولها،

وذلك كناية عن خلوها من المقيمين بها، فالدمار لم يقتصر على البنيان، بل أصاب من قبله الإنسان.

وعن طريق القصر يوضح الشاعر خلو الديار من ساكنيها، وهذا في قوله: (لا ترى العين بين تلك الأكام غيرَ أيْدٍ وأرْجُلِ بائنات نُبذَتْ بينهنَّ أفلاقُ هام)، "لا يستطيع القارئ أن يتخلص من جوِّ الفاجعة؛ لأن الشاعر نقلها إلينا نقلًا أمينًا بارعًا فلا يهمه بعد ذلك أن يوجد في عصر ابن الرومي أو لا يوجد، أن يشهد نكبة البصرة أو لا يشهد." [(١)]، وقد جسد الشاعر الأحداث في صورة واضحة جلية تدعو يملؤها الحزن ويكسوها الأسى، "انظر في كلمة "بائنات" بالنسبة إلى الأرجل والأيدي، ذلك تجسيدٌ واضحٌ مؤثرٌ، كأنك وأنت تجاوزت مئات السنين ترى أمامك ما وصفه الشاعر، الأيدي والأرجل مفصولات بعضها عن بعض وقد انتثرت بينها قطع من الجماجم (أفلاق هام)"[(٢)].

ولا تجد غير وجوه امتلأت بالرمال الملطخة بالدماء، وقد كست الرمال هذه الوجوه بسبب وطء الزنوج لها، فبعد أن كانت معززة معظمة في أهلها أصابها الذل والهوان، وساعد في إبراز هذه الصورة الطباق، حيث طابق بين الهوان والذل، وبين التبجيل والإعظام. كما أنَّ التجسيد ظاهرٌ جليٌّ في حديثه عن الرياح وتجسيد حزنها على البصرة وأهلها وما أحل بهم، مصورًا ذلك بقوله: فتراها تَسْفي الرياحُ عليها جارياتٍ بهبوة وقتام خاشعاتٍ كأنَّها باكياتٌ باديـاتِ الثغور لا لابتسام"، فلم يتبق لهم بيوت وأشجار يحزنون على أصحاب البلدة، فحزنت الرياح

(١) رثاء ابن الرومي بين الاتباع والابتداع، علي أصغر حبيب، ص٨٣، إضاءات نقدية، العدد الثالث، ١٣٩٠هـ ٢٠١١م.

(٢) ابن الرومي في الصورة والوجود، علي شلق، ص٣٣٥، دار النشر للجامعيين.

حزنًا شديدًا، وقد أسهم في إبراز الصورة محسنات بديعية أكدت المعنى كالطباق بين جاريات وخاشعات، وبين باكيات وابتسام.

كما وظف ابن الرومي مراعاة النظير في أبياته، فناسب بين هبوة وقتام وباكيات وخاشعات، فكلها كلماتٌ تدل على الحزن.

بـل ألِمَّـا بسـاحةِ المسـجدِ الجـا ... مـــع إنْ كُنْتُمـــا ذَوِي إلمـــام

فاســـألاهُ ولا جـــوابَ لدْيـــهِ ... أيـــن عُبَّـادُهُ الطـــوالُ القيـــام

أيـــنَ عُمَّـــاره الأُلـــى عمَـــروهُ ... دَهْـــرَهُمْ فـــي تـــلاوة وصـــيام

أيـــن فِتيانـــه الحِســـانُ وجُوهـــاً ... أيـــن أشـــياخُهُ أولـــو الأحـــلام

أيُّ خَطْـــــبٍ وأيُّ رُزْء جليـــــلٍ ... نالنـــا فـــي أولئـــكَ الأعمـــام

كـم خـذلنا مـن ناسـكٍ ذي اجتهـادٍ ... وفقيـــهٍ فـــي دينـــهِ عـــلَّام

وا نـــدامي علـــى التَّخلُّـــفِ عـــنهمْ ... وقليـــلٌ عـــنهُم غَنـــاء نِـــدامي

وا حيـــائي مـــنهُمْ إذا مـــا التقينـــا ... وهُـــمُ عنـــد حـــاكم الحُكّـــام

بعد أن وصف الشاعر ما حل بالبصرة وأهلها في تساؤلات أرسلها لصاحبيه وأجاب عليها، عاد ثانية بمجموعة من التساؤلات عن المسجد ورواده ومشايخه، أين كانوا وأين ذهبوا؟ فتوجه بحديثه إلى صاحبيه مرة أخرى طالبًا منهم بصيغة الأمر بغرض الالتماس، فيلتمس منهم أن يلموا بالجامع الكبير الذي كان مشهورًا بالبصرة، ويظهر الطباق بين قوله: (اسألاه ولا جواب) فجمعه بين الشيء وضده يوضح الحال التي آل إليها المسجد، حيث إنه بعد زهوه صار خرابًا كالخراب الذي نال المدينة كلها، وقد أراد الشاعر من ذكر الجامع إثارة همة المسلمين من أجل حثهم على تحرير مدينة البصرة.

وقد طلب الشاعر من صاحبيه أن يسألا المسجد أربعة أسئلة لا جواب لها، وهي:

أين عُبَّادُهُ – أين عماره – أين فتيانه – أين أشياخه

فيتساءل الشاعر بكل حسرة وندم وألم عن حلقات العلم التي كانت تعقد في المسجد الكبير بالبصرة، ويعقدها الشيوخ الراجحة عقولهم علمًا ودينًا، ويحضرها فتيان وشباب البصرة الذين يكسو وجوههم الحسن، وتزينهم العبادة والتلاوة.

ويختم هذه التساؤلات بتساؤلات أخرى عن المصيبة التي نزلت بهؤلاء كلهم، معبرًا عن ذلك باستفهام مجازي بغرض التهويل والتعظيم من هذا الحدث الذي أحل بهم، مكررا الاستفهام للتأكيد، والحدث لم ينل أهل البصرة فحسب، بل أصاب المسلمين أجمعين، وهنا يمهد الشاعر للحديث عن خذلان البصرة وأهلها والتخلي عنهم وقت ضيقتهم، وهذا يدل عليه قوله:

كم خذلنا من ناسكٍ ذي اجتهاد وفقيهٍ في دينهِ علَّام
وا ندامي على التَّخلُّفِ عنهمْ وقليلٌ عنهُم غَناء نِدامي
وا حيائي منهُمْ إذا ما التقينا وهُمُ عند حاكم الحُكّام

فيأتي بـ"كم" التي هي للكثرة؛ لتعظيم ما فعلوه من خذلان وتفريط في أهل الدين عندهم، وخصهم بالذكر هنا؛ لأن الناس يكونون أكثر تعلق برجال الدين، فاستنفرهم الشاعر وأشعل حميتهم وغيرتهم على دينه ورجالاته.

ويلتفت الشاعر من الحديث عن الجمع إلى الحديث عن المفرد، وهو يتحدث عن نفسه فيقول: "وا ندامي، وا حيائي"، فالندم كان عن شيء فات وهو التخلف عن نصرتهم، والحياء من شيء قادم وهو الحياء من لقائهم يوم البرزخ، بذلك يستحضر الشاعر هنا قول النبي صلى الله عليه وسلم عن الحياء، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت"[1]، يعبر الشاعر عن

(١) في باب "إِذا لَمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ مَا شِئْتَ"برقم٢٣٦٥- في مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي للألباني:٨٦/٤ – مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض–الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، رقم ٤١٨٣، ٢/١٤٠٠، دار إحياء الكتب العربية.

ألمه واستحيائه من أولئك العلماء الذين قتلوا دون أن يُمد لهم العون من الأمة الإسلامية، وخاصة إذا التقاهم يوم القيامة عند ربِّ العباد، والشاعر في استخدامه "وا" في قوله: "وا ندامي، و وا حيائي"، يطلق بها صرخة مدوية، فيندب حال البصرة وما آلت إليه، عاصمة العلم والحضارة، حيث إن "وا" تستخدم للندبة، "وهي التي ينادى بها المندوب المتفجع عليها"(١)، وكأن الشاعر لجأ إلى هذا الأسلوب ليتيح لصدره المكلوم فرصة للتنفيس عن نفسه.

وبهذا يمهد الشاعر من الانتقال من المشهد الرابع إلى المشهد الخامس والأخير، فبعد أن تحدث عما أصاب البصرة وأهلها عامة، تحدث عن علماء الدين والفتيان من رواد المساجد طالبي العلم، وقد تم القضاء على الجميع علماء الحاضر والمستقبل على أيدي الزنوج، وبعد ذلك ينتقل إلى المشهد الخامس الذي يلح فيه على الجانب الديني؛ لإيقاظ الحمية والغيرة في نفوس المسلمين أجمعين.

***

المشهد الخامس والأخير: وهو حث الشاعر وإشعال الحمية في صدور المسلمين أجمعين بهدف الأخذ بالثأر وقتل العدو والانتقام منه أشد الانتقام وهذا المشهد يصور لنا كيف استطاع ابن الرومي بيسر وسهولة أن يؤكد على أن حب الوطن والزود عنه والدفاع عن المسلمين في كل بقاع الأرض من الإيمان، حيث حث قومه على الدفاع وقد استحضر لهم مشاهد كلها تتعلق بعقيدة المؤمن وإيمانه، فالوطن والدفاع عنه واجبٌ على كل مؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول ابن الرومي:

أيُّ عُـــذْرٍ لنـــا وأيُّ جـــوابٍ حـين نُـدْعَى علـى رؤوسِ الأنـامِ

يـا عبـادي أمـا غَضِـبْتُم لـوجهي ذي الجـــلال العظـــيم والإكـــرام

(١) البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن، ١/٢٤٠، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، دار القلم، دمشق..

أخـــذلتُمْ إخـــوانَكُم وقعـــدْتُمْ ... عـــنهُمُ ويحَكُـــم قُعـــودَ اللئـــام
كيـف لـم تعطفـوا علـى أخـواتٍ ... فـي حِبـال العبيـدِ مـن آل حـامِ
لـــم تغـــاروا لغَيْرتـــي فتـــركْتُمْ ... حُرمـــاتِي لمَـــنْ أحَـــلَّ حرامـــي
إنَّ مـن لـم يَغَـرْ علـى حُرُمـاتي ... غيـرُ كُـفْءٍ لقاصـراتِ الخيـام
كيـف ترضـى الحَـوراء بـالمرءِ بَعْـلاً ... وهـو مـن دونِ حُرمـة لا يُحـامي
وا حيـائي مـن النَّبـيِّ إذا مـا ... لامنـــي فـــيهم أشـــدَّ المـــلام
وانقطـــاعي إذا هُـــمُ خاصـــموني ... وتـــولَّى النبـــيُّ عـــنهُمْ خصـــامي
مثِّلُـوا قولـهُ لكُـمْ أيُّهـا النَّـا ... سُ إذا لامكُـــمْ مـــع اللُّـــوَّام
أُمَّتـــي أيـــنَ كُنْـــتُمُ إذْ دَعتْنـــي ... حُـــرَّةٌ مـــن كـــرائمِ الأقـــوامِ
صـــرختْ يـــا مُحمّـــداهُ فهـــلّا ... قـام فيهـا رعـاةُ حقـي مقـامي
لـم أجبْهـا إذ كنـتُ مَيْتـاً فلـولا ... كـان حـيٌّ أجابهـا عـن عِظـامي
بـــأبي تلكُـــمُ العِظـــامُ عظامـــاً ... وسـقَتْها السـماءُ صـوْبَ الغمـام
وعليهـــا مـــن المليـــك صـــلاةٌ ... وســـــلامٌ مؤكَّـــــدٌ بســـــلام
انفـــرُوا أيهـــا الكـــرامُ خِفافـــاً ... وثِقـــالاً إلـــى العبيـــدِ الطَّغـــام
أبْرَمُـــوا أمـــرَهُمْ وأنـــتُمْ نِيـــامٌ ... ســـوءةً ســـوءةً لنـــوْمِ النيـــام
صـــدِّقوا ظـــنَّ إخـــوة أمَّلـــوكم ... ورجـــــوْكُمْ لنبـــــوةِ الأيـــــامِ
أدْرِكـــوا ثـــأْرَهُمْ فـــذاك لـــديْهِم ... مثـــلُ ردِّ الأرواحِ فـــي الأجســـامِ
لـم تُقِـرُّوا العيـونَ مـنهم بِنَصْـرٍ ... فـــأقِرُّوا عيـــونهمْ بانتقـــام
أتقِـــذُوا سَـــبْيَهُمْ وقـــلَّ لهُـــمْ ذا ... ك حفاظـــاً ورعْيَـــةً للـــذِّمام
عـــارُهُمْ لازمٌ لكُـــمْ أيُّهـــا النَّـــا ... سُ لأنَّ الأديـــانَ كالأرحـــام
إن قعـــدتُمْ عـــن اللعـــينِ فـــأنْتُمْ ... شـــركاءُ اللَّعـــينِ فـــي الآثـــامِ
بـــادروهُ قبـــلَ الرويَّـــةِ بـــالعَزْ ... م وقبـــل الإســـراج بالإلجـــام

من غدا سرجُهُ على ظهرِ طِرفٍ فحـــرامٌ عليـــه شـــدُّ الحـــزام
لا تطيلـوا المقـام عـن جنَّـة الخـل ـدِ فـأنتمْ فـي غيـر دار مُقـام
فاشـتروا الباقيـات بـالعرَضِ الأد نـى وبِيعـوا انقطاعـه بالـدَّوام

بعد أن اختتم الشاعر فقرته السابقة بحديثه عن أسفه الشديد عن خذلان أهل البصرة وندمه على التخلي عنهم، وعدم نصرتهم هو وغيره من أهل الدين، وماذا سيقول لهم حين لقائهم في الحياة الآخرة، فأخذ يبحث عن عذر يقوله لهم:

أيُّ عُـــذْرٍ لنـــا وأيُّ جـــوابٍ حـين نُـدْعَى علـى رؤوسِ الأنـامِ
يـا عبـادي أمـا غَضِـبْتُم لـوجهي ذي الجـــلال العظـــيم والإكـــرام
أخـــذلتُمْ إخـــوانَكُم وقعـــدْتُمْ عـــنهُمُ ويحَكُـــم قُعـــودَ اللئـــام

وهيهات أن يجد عذرًا يقبل منه، وأي جواب على الأسئلة التي سيسألهم إياها الله سبحانه وتعالى، يوم القيامة، وابن الرومي في تعبيره هذا استخدم أسلوب السرد، فكان مسترسلا فيما يخبرنا، معتمدًا على الاستفهام الإنكاري بغرض النفي في قوله: (أي عذر، وأي جواب)، أي لا يوجد لنا أي عذر، ولا جواب، مستخدمًا أي؛ لينفي أي فرصة لهم في وجود عذر أو جواب مقبول.

ثم يسترسل ابن الرومي في طرح الأسئلة التي يعتقد أنها ستكون من الله سبحانه وتعالى موجهة إليهم، وفي هذا شعورٌ شديدٌ بالذنب والاعتراف به، جعله يعلم في أي شيء سيُسأل.

فبدأ بأسلوب النداء المجازي، والغرض منه اللوم عليهم، أكده بوصفهم بالعباد، وإضافتهم إلى الله سبحانه وتعالى في قوله عبادي، فكونهم عبادا لله سبحانه وتعالى، وجب عليهم نصرة إخوانهم غضبًا لوجه الله سبحانه وتعالى، فكان الاستفهام الإنكاري في قوله: (أما غضبتم لوجهي) لماذا لم تغضبوا لي، وثناه باستفهامٍ إنكاريٍّ آخر بقوله: (أخذلتم إخوانكم وقعدتم عنهُمُ ويحَكُم قُعودَ اللئام)، فجاء الاستفهام هنا تقريريًّا، حيث حملهم ابن الرومي على الإقرار بما

فعلوا، مؤكدًا على فداحة ما عملوه باستخدامه الجملة الاعتراضية (ويحكم)، أي الويل لكم على ما فعلتم والهدف منها الزجر لهم والنهي عما يفعلون؛ علهم يستيقظون من غفلتهم ويثأرون لإخوانهم.

وبعد أن تحدث الشاعر عن مجمل الأسئلة التي ستوجه لهم، وكان فيها زجر ووعيد لشنيع فعلتهم من ترك إخوانهم المسلمين دون الثأر لهم، وكان الحديث عاما، خصص ابن الرومي الأبيات التالية للحديث عن النساء، والعربي معروف بعصبيته وغيرته الشديدة على نسائه، فكان ذكاء من ابن الروم أن يستثير حميتهم بحديثه عن نساء البصرة، فيقول:

كيف لم تعطفوا على أخواتٍ ... في حِبال العبيدِ من آل حامِ
لم تغاروا لغَيْرتي فتركْتُمْ ... حُرماتِي لمَنْ أحَلَّ حرامي
إنَّ من لم يَغَرْ على حُرُماتي ... غيرُ كُفْءٍ لقاصراتِ الخيام
كيف ترضى الحَوراء بالمرءِ بَعْلاً ... وهو من دونِ حُرمة لا يُحامي

بدأ مقطوعته الشعرية هذه باستفهام، واختتمها باستفهام آخر، والاستفهام الأول جاء سببًا والثاني نتيجة لهذا السبب؛ فالاستفهام الأول استفهامٌ انكاريٌّ يُفيد التوبيخ لهم وتذكيرهم بحميتهم، فيقول: (كيف لم تعطفوا على أخوات في حبال العبيد من آل حام)، مستخدمًا أسلوب الجزم تأكيدًا لما كان منهم من تخلٍّ ليس عن الرجال فقط، بل عن النساء، معبرًا عنهنَّ بلفظ أخوات نكرة؛ ليظهر ضعف هؤلاء السيدات اللائي كن بحاجة إلى نصرتهنَّ والذود عنهنَّ، وبسبب هذا التخلي أصبحوا أرقاء بعد أن كانوا أحرارًا، معبرًا عن ذلك بالاستعارة التبعية في الحرف في قوله: (في حبال العبيد من آل حام)، فجعل أخواتهم الأحرار أرقاء، عند العبيد، فهو عارٌ فوق عارٍ.

والمراد من آل حام هنا كناية عن الزنج، فقد ورد في كتاب الأنساب: "رُوى عن سعيد بن المسيبّ قال: ولدَ نوحٌ أربعةَ نَفَر: سام، وهو أبو العرب وفارس

والروم: ويافث، وهو أبو يَأْجُوجَ ومَأْجُوج والتُّرك والصقّالِبة، وحام، وهو أبو البَرابِر والقِبْط والسّودَان، ويام، وهو الذي قال) سَآوِي إلى جَبل يَعْصِمُني مِنَ الْماء (قال: وولَدَ حامُ السِّنْدَ والهِنْدَ والزَّنْج والحَبَشة والسُّودان والبُجّة والنُّوبَة والزطَّ والقِبْط والبَرْبر والنّسْنَاس. ومِنْ ولَدِ يافث يأجُوج ومَأجُوج والتُّرْك والصَّقَالَبة واللاَّن والشّاش والطارنيل وسورانيل وفارس وتاريس وتاويل وتناويل ومن ولد سام طَسْم وجَدِيس وجُرْهُم والعَمَالِيق وقُطُورَا وإدْرِيس والعَرَب وفَارِس وخُراَسان"[١].

وقد جاء قوله: (لم تغاروا لغَيْرتي فتركْتُمْ حُرماتِي لمَنْ أحَلَّ حرامي)، تأكيدًا للجملة السابقة، كيف لم تعطفوا، والتقدير هنا كيف لم تغاروا، وترك الوصل بين الجملتين؛ لكمال الاتصال، فالثانية بدل جزء من كل، فعدم غيرتهم على أخواتهم جزء من عدم عطفهم ونصرتهم.

وأكد ابن الرومي على هذا المعنى وهو تعظيم الجرم الواقع منهم، فعبر بالمشاكلة في قوله لم تغاروا لغيرتي؛ حيث جاءت غيرتي بنفس لفظ الغيرة الأولى؛ لوقوعها في صحبتها، والمراد هنا ليست غيرة المولى سبحانه وتعالى، وإنما حرماته، دل على ذلك قوله: فتركتم حرماتي، وفي إضافة غيرتي وحرماتي إلى الذات العلية تعظيمٌ من قبح الفعل، فحرمات الله سبحانه وتعالى هي أدعى للدفاع والذود عنها بكل ثمين ونفيس.

وفي مقابلة تعظيم هذه الحرمات، عبر بالموصولية في الحديث عن الزنج في قوله من أحل حرامي، مستخدما الطباق بين الفعل أحل، والاسم حرامي.

إنَّ مـن لـم يَغَـرْ علـى حُرُمـاتي غيـرُ كُـفْءٍ لقاصـراتِ الخيـام

كيـف ترضـى الحَـوراء بـالمرءِ بَعْـلاً وهو من دونِ حُرمة لا يُحامي

(١) كتاب الأنساب، سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري، ص ٢٢، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان.

بعد أن ذكر الشاعر ما هم عليه من تخاذل عن نصرة أخواتهم، جاء بالنتيجة المتعلقة بهذا الفعل، فبسبب ما فعلتم بنا في الدنيا فلستم أهلا لأن نكون معكم في الآخرة، معبرًا عن ذلك بالتأكيد، واسمية الجملة، والتعبير بالموصولية بغرض التقليل من شأنهم والتحقير من منزلتهم بسبب فعلهم (إنَّ من لم يَغَرْ على حُرُماتي)، مؤكدًا كل هذا بالاستفهام الإنكاري في قوله: (كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلًا وهو من دون حرمة لا يحامي)، فإذا كان الفعل خذلانًا، استحق الحرمان، وأي حرمان هذا، فحرمان الدنيا غير مقدور عليه ويعذب المرء بسببه، فما بالنا بحرمان الآخرة!

وفي البيتين اقتباس من وصف نساء الجنة بكونهن حورًا مقصورات في الخيام في قوله تعالى: "حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ" (سورة الرحمن، آية ٧٢).

وبعد أن استثار الشاعر همة قومه بتصوير مشهد يوم القيامة، وسؤال المولى سبحانه وتعالى عن سبب خذلان المسلمين لإخوانهم وأخواتهم والقعود من دونهم، وفضلوه على نصرتهم فكأنهم تخلفوا عن الغزو، فتحقق فيهم قول الله سبحانه وتعالى: "رَضُوا بِأَن يَكُونوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ" (سورة التوبة، آية ٨٧)، فمتى أدرك المسلم أن جزاء هذا الفعل الطبع على القلوب في الدنيا والعذاب والحرمان في الآخرة، تحركت همته للفوز في الدنيا والآخرة.

وزيادة في استثارة الهمم وتحريك الحمية لدى المسلمين، استحضر لهم مشهدًا آخر، وهو لقاء النبي صلى الله عليه وسلم، وسؤاله لهم عن ماذا فعلوا بعده مع حرائر أمته؟ وهو الذي جعل خطبته الأخيرة في آخر لقاء له مع الناس أن وصاهم على النساء في خطبة الوداع؟؟!!

فيقول الشاعر واصفا هول هذا الموقف:

وا حيـــائي مـــن النَّبـــيِّ إذا مـــا ... لامنـــي فـــيهم أشـــدَّ المـــلام
وانقطـــاعي إذا هُـــمُ خاصـــموني ... وتـــولَّى النبـــيُّ عـــنهُمْ خصـــامي
مثِّلُـــوا قولـــهُ لكُـــمْ أيُّهـــا النَّـــا ... سُ إذا لامكُـــمْ مـــع اللُّـــوَّام
أُمَّتـــي أيـــنَ كُنْـــتُمُ إذْ دَعتْنـــي ... حُـــرَّةٌ مـــن كـــرائمِ الأقـــوامِ
صـــرختْ يـــا مُحمّـــداهُ فهـــلّا ... قـــام فيهـــا رعـــاةُ حقـــي مقـــامي
لـــم أجبْهـــا إذ كنـــتُ مَيْتـــاً فلـــولا ... كـــان حـــيٌّ أجابهـــا عـــن عِظـــامي
بـــأبي تلكُـــمُ العِظـــامُ عظامـــاً ... وســـقَتْها الســـماءُ صـــوْبَ الغمـــام
وعليهـــا مـــن المليـــك صـــلاةٌ ... وســـــلامٌ مؤكَّـــــدٌ بســـــلام

يبدأ مقطوعته الفنية بوضع نفسه موضع المسؤولية؛ فالشاعر لم يلق باللوم على غيره، بل صور نفسه بأنه مشارك في جريمة شارك فيها الجميع: ويقول من شدة هول الموقف يقول الشاعر: "وا حيائي" أسلوبٌ كله حسرةٌ وندمٌ على تفريطه وغيره في حق إخوانهم، ولعظم الأمر عبر بأفعل التفضيل، والتعريف دون التنكير في قوله: (أشد الملام)، ثم عطف قوله: (وانقطاعي) على قوله: (وا حيائي)، فبين الجملتين كمال اتصال، والتقدير ويا انقطاعي، أي يا ويلي من عدم اتصالي ووحدتي بعد مخاصمة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن منا يتحمل مخاصمة النبي الرحيم بأمته جميعا؟؟!! هل تكون المخاصمة منه إلا لأمر جلل، موضحا الشاعر هذا الأمر مشاركا للكل معه، وليس نفسه فقط، فيلتفت الشاعر عن التحدث عن نفسه إلى التحدث عن الجميع فيقول:

مثِّلُـــوا قولـــهُ لكُـــمْ أيُّهـــا النَّـــا ... سُ إذا لامكُـــمْ مـــع اللُّـــوَّام
أُمَّتـــي أيـــنَ كُنْـــتُمُ إذْ دَعتْنـــي ... حُـــرَّةٌ مـــن كـــرائمِ الأقـــوامِ
صـــرختْ يـــا مُحمّـــداهُ فهـــلّا ... قـــام فيهـــا رعـــاةُ حقـــي مقـــامي
لـــم أجبْهـــا إذ كنـــتُ مَيْتـــاً فلـــولا ... كـــان حـــيٌّ أجابهـــا عـــن عِظـــامي

مستخدما الشاعر في بداية المشهد الجمعي صيغة الأمر المستخدم في المعنى المجازي (مثلوا)، والمراد هنا هو النصح والإرشاد مع استحضار الصورة في الذهن، أي تخيلوا نداءه لكم، وقوله أيها الناس يستحضر قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في خطبة الوداع حين تحدث عن النساء، حيث قال(١): "أما بعد، أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقًا ولكم عليهن حق. لكم أن لا يواطئن فرشهن غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوانٌ لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنَّ خيرًا – ألا هل بلغت اللهم فاشهد".

فكما جمع النبي صلى الله عليه وسلم الناس وخطب فيهم في خطبة الوداع مخاطبا إياهم، سيكون هذا موقفه معهم يوم العرض، مع اختلاف المقام، فبعد أن وصاهم بهم في حياته خلفوا وصيته بعد مماته، مؤكدا ذلك مستخدما الاستفهام الإنكاري؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم بعد إضافتهم لنفسه في قوله أمتي، يستنكر عليهم بقوله: أين كنتم؟، موضحا استغاثة المرأة الحرة كريمة الحسب والنسب، فهي العربية المسلمة، تستغيث بنبيها قائلة يا محمداه من هول ما رأوا من صنوف العذاب على يد الزنج، يتبعها قوله: "فهلا قام فيها رعاة حق مقامي" مستخدما أسلوب التحضيض بغرض الحث والتحفيز لهم، واصفًا من يلبي النداء بأنه راعي مقام النبي صلى الله عليه وسلم محافظٌ عليه، بل يكمل الشاعر

(١) الفرائد لما في خطبة الوداع من الفوائد، د/ زين بن محمد العيدروس ص٢١، ط٢، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، حضرموت – اليمن.

في استحضار الموقف بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان ميتا فلم يلبِّ نداءها، فلولا فيكم أيها القوم من هو حي يجيبها عني!!؟؟

ثم يلتفت الشاعر من الحديث عن استحضار موقف النبي صلى الله عليه وسلم منهم وعتابه إياهم، يلتفت إلى الحديث عن نفسه، فيفتدي عظم النبي بأبيه، كناية عن حبه العظيم للنبي صلى الله عليه وسلم:

بأبي تلكُمُ العِظامُ عظاماً ... وسقَتْها السماءُ صوْبَ الغمام

وعليها من الملِيك صلاةٌ ... وسلامٌ مؤكَّدٌ بسلام

كما يدعو لهذه العظام المباركة الشريفة أن تسقى بصوب الغمام، وعليها صلاةٌ وسلامٌ من الله سبحانه وتعالى؛ تعظيما وتشريفا لها ولصاحبها عليه سلامٌ مؤكدٌ بسلام.

ثم يلتفت من التكلم إلى الخطاب موجهًا حديثه إلى القوم، أي من أجل هذا الموقف وتداركه فلنسارع بإنقاذهم والدفاع عنهم وعن أرضهم ووطنهم، فالجميع يوم القيامة مخاطبٌ بما قدم من نصرٍ، محاسب على الخذلان والتخلي، يقول ابن الرومي:

انفرُوا أيها الكرامُ خِفافاً ... وثِقالاً إلى العبيدِ الطَّغام

أبْرَمُوا أمرَهُمْ وأنتُمْ نِيامٌ ... سوءةً سوءةً لنوْمِ النيام

صدِّقوا ظنَّ إخوة أمَّلوكم ... ورجوْكُمْ لنبوةِ الأيامِ

أدْرِكوا ثأْرَهُمْ فذاك لديْهِم ... مثلُ ردِّ الأرواحِ في الأجسامِ

لم تُقِرُّوا العيونَ منهم بِنَصْرٍ ... فأقِرُّوا عيونهمْ بانتقام

أنقِذُوا سَبْيَهُمْ وقلَّ لهُمْ ذا ... ك حفاظاً ورعْيَةً للذِّمام

عارُهُمْ لازمٌ لكُمْ أيُّها النَّا ... سُ لأنَّ الأديانَ كالأرحام

إن قعدتُمْ عن اللعينِ فأنْتُمْ ... شركاءُ اللَّعينِ في الآثامِ

بادروهُ قبلَ الرويَّةِ بالعَزْ ... م وقبل الإسراج بالإلجام

مـن غـدا سـرجُهُ علـى ظهـرِ طِـرفٍ فحـــرامٌ عليـــه شـــدُّ الحـــزام
لا تطيلـوا المقـام عـن جنَّـة الخـل ـدِ فـــأنتمْ فـــي غيـــر دار مُقـــام
فاشـــتروا الباقيـــات بـــالعرَضِ الأد نـــى وبِيعـــوا انقطاعـــه بالـــدَّوام

في هذه المقطوعة الشعرية ألح الشاعر إلحاحًا على الهدف الذي نظم من أجله القصيدة وهو غرس روح المقاومة والدفاع عن العرض والأرض، وإلهاب روح الدفاع وإشعال الحمية عند الجميع، مستخدما أسلوب الأمر تسع مرات، ثماني مرات أمر، ونهي أصله أمر، وهذه الأفعال هي: "انفروا، صدقوا، أدركوا، أقروا، أنقذوا، بادروا، لا تطيلوا، اشتروا، بيعوا".

كل هذه الصيغ أمرٌ في اللفظ، والحقيقة هي التوجيه والإرشاد والحث على النفور لنصرتهم، وأن يصدقوا ظن إخوانهم فيهم في عدم التخلي، وإن لم يدركوهم في حياتهم فليدركوهم بعد موتهم بأخذ ثأرهم؛ ليقروا أعينهم بذلك، وليبادروا بهذا قبل فوات الأوان، وكل هذا في النهاية سيؤدي بهم إلى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة أو هما معا، وهذا ما يجب السعي لشرائه فهو الدائم، وكل ما خلافه فانٍ.

والشاعر أكَّد هذا المعنى الذي امتلأت نفسه به بكل المؤكدات، فتراه يلجأ إلى الاقتباس من القرآن الكريم في حثهم على النفير للجهاد في قوله:

انفـــرُوا أيهـــا الكـــرامُ خِفافـــاً وثِقـالاً إلـى العبيـدِ الطَّغـام[1]

مقتبسًا هذا من قول الله سبحانه وتعالى: "انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ" (سورة التوبة، آية ٤١)، مستخدمًا الطباق توكيدًا وتعزيزًا لقوله، فأنتم الكرام في قومكم، وهم الأراذل من القوم وعبيد لهم، فانفروا في كل حالاتكم خفافا وثقالا.

(١) الطغام، أرذال الناس وأوغادهم، لسان العرب لابن منظور، مادة طغم.

كما جاء الاقتباس في قوله:

أبْرَمُــوا[١] أمــرَهُمْ وأنــتُمْ نِيــامٌ سوءةً[٢] سوءةً لنوْمِ النيام

فيقول المولى سبحانه وتعالى: "أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ" (سورة الزخرف، آية ٧٩)، ولعل الشاعر هنا أراد بالاقتباس ليس اللفظ فقط، وإنما أراد أن يعتبروا بما جاء في الآية، إذا كان الكافرون دبروا لأمر؛ فدبروا أيضا لهم، واعزموا أمركم وأتوهم صفا.

وجاء قوله: "وأنتم نيام"، استعارة تصريحية، حيث شبه الغفلة التي كان فيها المسلمون وانشغالهم بالنوم، بجامع عدم الإدراك لما يحدث، والاستعارة هنا فيها تقريعٌ وزجرٌ لهم، فالنائم ليس عليه حرج، بخلاف الغافل الذي بحاجة إلى الاستيقاظ من غفلته، أكد هذا الزجر والتقريع بقوله: "سوءة" التي كررها؛ ليدل على أن غفلتهم هذه عارٌ عليهم وأي عار.

وبعد هذا الزجر والتقريع ينتقل مباشرة بأسلوب الأمر إلى هدفه الذي يلح عليه من بداية القصيدة حتى نهايتها لنصرة إخوانهم فيقول:

صــدِّقوا ظــنَّ إخــوة أمَّلــوكم ورجــــوْكُمْ لنبــــوةِ الأيــــامِ

أدْرِكــوا ثــأْرَهُمْ فــذاك لــديْهِم مثــلُ ردِّ الأرواحِ فــي الأجســامِ

لــم تُقِــرُّوا العيــونَ مــنهم بِنَصْــرٍ فــأقِرُّوا عيــونهمْ بانتقــام

أنقِــذُوا سَــبْيَهُمْ وقــلَّ لهُــمْ ذا ك حفاظــاً ورعْيَــةً للــذِّمام

(١) أبرم الأمر ونحوه: برمه، أحكمه ودبره، لسان العرب، مادة أبرم.

(٢) السوءة العادة القبيحة، والسوءة كل عمل وأمر شائن، اللسان.

يصور الشاعر الحال التي كان عليها أهل البصرة في انتظار النصرة والغوث من المسلمين، معبرًا عن ذلك بمراعاة النظير بجمعه بين الظن والأمل والرجاء، فأمر الشاعر المسلمين على سبيل الحث والتحفيز، بأن يدققوا ظنهم الحسن فيهم، ويدركوا ثأرهم، وهذا بمثابة إحيائهم بعد الموت؛ دل على ذلك قوله: "فذاك لديهم مثل رد الأرواح في الأجسام".

وبأسلوب المفارقة المؤكدة بطباق السلب (لم تقروا العيون منهم، فأقروا عيونهم) يذكرهم الشاعر بما فعلوه حال حياتهم من نصر لهم، ليحثهم بالانتقام لهم بعد الموت لتقر أعينهم ويهنأوا حيث أقامهم الله سبحانه وتعالى.

عـــارُهُمْ لازمٌ لكُـــمْ أيُّهـــا النَّـــا ... سُ لأنَّ الأديـــانَ كالأرحـــام

إن قعـــدتُمْ عـــن اللعـــينِ فـــأنْتُمْ ... شـــركاءُ اللَّعـــينِ فـــي الآثـــامِ

بـــادروهُ قبـــلَ الرويَّـــةِ[1] بـــالعَزْ ... م وقبـــل الإســـراج بالإلجـــام

من غدا سرجُهُ [2]على ظهرِ طِرفٍ ... فحـــرامٌ عليـــه شـــدُّ الحـــزام

يذكرهم الشاعر بما يلازمهم في الحياة وبعد الممات، فعدم نصرة أهل البصرة في حياتهم والانتقام لهم بعد مماتهم، سيبقى عار يلازم كل الناس بمختلف دياناتهم، فالأديان كالأرحام، فكلنا بني آدم ولو اختلفت الديانات، فالدين عند الله الإسلام، وكل الديانات السماوية تدعو إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، وأكد الشاعر قوله هذا بتوجيه النداء لهم بقوله: "أيها الناس" فلا فرق في النصرة بين مسلم ومسيحي، وجاء التشبيه ليقر ذلك، فقال: الأديان كالأرحام، فإذا استحققنا القرابة بسبب الرحم، فكذلك قرابة الأديان، فالكل في الوطن إخوة.

---

(١) الروية: النظر والتفكير في الأمور، لسان العرب مادة روى.

(٢) السرج: رحل الدابة، وشد عليه السرج: أي الرحل الذي يوضع على ظهره فيقعد عليه، لسان العرب، مادة سرج.

وأنتم يا أخوة الدين والوطن لستم أبرياء مما حدث إن ظللتم في صمتٍ عنه، بل ستكونون شركاء في هذا الاعتداء، أوضح ذلك بقوله: "إن قعدتُمْ عن اللعينِ فأنْتُمْ شركاءُ اللَّعينِ في الآثامِ"، وفي القول إيجازٌ بالحذف، إذ التقدير إن قعدتم عن معاقبة اللعين والانتقام منه، كما ذكر المسند إليه في قوله اللعين الثانية معرفا، مع وجود قرينة تدل عليه وهي ذكره في الكلام سابقًا، فلم يكتف بالإشارة إليه بضمير يعود عليه، تأكيدًا للحثِّ على الانتقام منه، والنأي بأنفسهم عن أن يشاركوه في إثم الاعتداء على الأرض واغتصابها من أصحابها وقتل الأبرياء.

وقد طلب منهم الإسراع في تحقيق الانتقام والثأر معبرًا بفعل الأمر للحث والتعجيل بقوله: "بادروا"، أي بادروا ذلك العدو اللعين، بسرعةٍ وعزمٍ لا بالانتظار، وبالإسراج قبل الإلجام، مستخدمًا أسلوبَ الطباق، فبالتضاد تتأكد المعاني وتتضح.

ثم يلح الشاعر على معنى أن دفاعهم هذا هو واجب ديني عليهم، مؤكدا ذلك، بأن أي شيء خلاف الثأر لهم حرام عليهم ما داموا لم ينتقموا لهم، مؤكدا هذا بالجناس بين حزام وحرام.

خاتمة القصيدة:

لا تطيلوا المقام عن جنَّة الخل دِ فأنتمْ في غير دار مُقام

فاشتروا الباقيات بالعرَضِ الأد نى وبِيعوا انقطاعه بالدَّوام

يختتم الشاعر قصيدته ببيتين هما من أجمل الأبيات في القصيدة؛ فأبدع فيهما أي إبداع، حيث إنه بعد أن وجههم بالفوز في الدنيا بنصرة إخوانهم فلا يلحقهم العار، بل أراهم مكانهم في الآخرة، مؤكدًا أنها هي دار المقام، مستخدمًا أسلوب النهي الذي خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي وهو الحث على الانتقام، فنهاهم عن أن لا يطيلوا البقاء في الحياة الدنيا وينشغلوا عن جنة

تنتظرهم، مؤكدًا على أنها دار المقام باستخدامه اسمية الجملة في قوله: "فأنتم في غير دار مقام"، ثم أتى بالاستعارة المكنية في موضعين في البيت الأخير، فالأولى في قوله: "فاشتروا الباقيات" والمراد بالباقيات هنا هو الأعمال الصالحة التي تكون سببًا في دخول الجنة، والاستعارة المكنية في شراء الباقيات؛ فالباقيات لا تشترى.

والاستعارة الثانية في قوله: "بيعوا انقطاعه" فصرح بالمشبه وهو الانقطاع وحذف المشبه به وهو السلعة أيضًا على سبيل الاستعارة المكنية، وقد طوع الشاعر الطباق لتأكيد معناه، فلما كانت الدنيا في مقابل الآخرة، وقد حثهم على الفوز بالآخرة الباقية والتخلي عن الدنيا الفانية، أكد ذلك بالطباق بين قوله: "لا تشتروا، وبيعوا"، كما عمد إلى مراعاة النظير؛ ليزيد المعنى تأكيدًا ووضوحًا، فناسب بين العرض الأدنى والانقطاع، كما ناسب بين الباقيات والدوام.

وابن الرومي هنا قد ختم القصيدة ببراعة، وإحكام وأبيات مناسبة لما بدأ به قصيدته وموضوعها.

***

الخاتمة

في نهاية هذه الدراسة لرثاء ابن الرومي للبصرة، تبين أنه رثاء صادق اللوعة عميق التفجع، انفعل معه ابن الرومي من بداية القصيدة مع الحدث، وأجاد في تطويع الأساليب البلاغية في الوصول إلى هدفه الذي ألح عليه من أول بيت في القصيدة إلى نهايتها، فيأتي بالخيال ليسعف عاطفته الشجية، فيتمكن من رسم معالم الفجيعة، ويضفي عليها ألوان الحزن والكمد والأسى القاتمة.

ونخلص من هذه الدراسة بعدة نقاط تذكر في السطور القليلة التالية:

- كان لاختيار الشاعر للبحر الذي نسج على منواله القصيدة دورٌ في تصوير الحالة التي خيمت على الشاعر من بداية القصيدة، وهي الحزن والشجن.
- التناغم الحادث بين الكلمات والذي كان سببه الطباق والجناس ومراعاة النظير جعل القصيدة تزخر بموسيقى عذبة هادئة، وإيقاع جميل بالإضافة إلى وزن القصيدة وقافيتها.
- لغة القصيدة من بدايتها لنهايتها، سهلة واضحة غير مبتذلة، أقرب إلى لغة النثر، حيث اعتمد الشاعر فيها على أسلوب السرد.
- جاءت ألفاظه مناسبة لمعانيه ملائمة لها، فلم يثُرْ أحدهما على الآخر.
- توافرت في القصيدة كل مقومات الشاعر المبدع، حيث أبدع في حسن الابتداء الذي جاء ملائمًا لغرض القصيدة، موضحًا له من أول الكلمة، كما أنه أجاد التخلص في الانتقال من فكرة إلى الفكرة التي تليها في انسيابية ويسر، كأن الأفكار تتولد من بعضها، بالإضافة إلى حسن الانتهاء من القصيدة.
- من أبرز ما ألح عليه الشاعر من فنون بلاغية في القصيدة هو التكرار الذي أسهم بشكل كبير في نقل اللوعة والأسى من قلب الشاعر المضرم بنار

الحسرة نقلها إلى المتلقي، فكان للتكرار الأثر البالغ في توضيح خبايا النص، والكشف عن نفسية الشاعر وعاطفته الصادقة المتأججة.

- كما كان للطباق أثر كبير في نقل الصورة التي أرادها الشاعر، حيث ينقل إلينا بغرض المفارقة حال البصرة في زهوها قبل الاحتلال ودمارها بعده.
- وكان للاستفهام المجازي دورٌ كبيرٌ في رسم الصورة التي أوردها الشاعر.
- وكان لفنون البيان من تشبيه واستعارة وكناية دور كبير في رسم الصورة ونقلها إلى القارئ، ليستثير ابن الرومي غيرتهم، ويشعل حميتهم، ويصل إلى ما يهدف له من الدفاع عن البصرة والانتقام لأهلها.
- الاقتباس من القرآن الكريم الذي توج الشاعر به قصيدته في أكثر من موقع، يدل دلالة واضحة على الوازع الديني لدى الشاعر، والذي انعكس في أبياته، واعتمد عليه كثيرًا في إلهاب حمية قومه واستثارة غيرتهم على إخوانهم، نسائهم ورجالهم، مشايخهم وأطفالهم، علمائهم ومقدساتهم.
- وأخيرا فإن ابن الرومي في ثورته هذه سار على نهج آبائه الأولين من الشعراء، في افتتاح قصائدهم في الرثاء، كما سار على نهجهم أيضا في استدعاء الأصحاب والتماسه منهم الوقوف بالديار؛ لينظروا ما حل بها من قفر بعد عمار.

***

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- ابن الرومي الشاعر المجدد.
- ابن الرومي حياته وشعره: كمال أبو مصلح، إبراهيم عبد القادر المازني – ط١ – المكتبة الحديثة.
- ابن الرومي في الصورة والوجود، علي شلق، دار النشر للجامعيين.
- ابن الرومي، عبد المجيد الحر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط: ١٩٩٢م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠، ط١.
- الأعلام للزركلي– دار العلم للملايين– الطبعة: الخامسة عشرة– أيار / مايو ٢٠٠٢م.
- البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن،ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، دار القلم، دمشق.
- تاريخ اليعقوبي – ج ٢ – دار الشريف الرضي – ١٤١٤ هـ.
- تاريخ بغداد .
- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب.
- الحموي: معجم البلدان – دار صادر – بيروت – ١٩٥٧م.
- خليل شرف الدين، ابن الرومي، دار مكتبة الهلال–الموسوعة الأدبية الميسرة، بيروت . ط٢، د.ت.
- دائرة المعارف الإسلامية.
- دراسات أندلسية في الأدب والفلسفة والتاريخ، الطاهر أحمد مكي،دار المعارف، ١٩٧٧م.
- ديوان ابن الرومي، أحمد حسن بسج.
- ديوان امرئ القيس، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م.

- الذريعة .
- رثاء ابن الرومي بين الاتباع والابتداع، علي أصغر حبيب، إضاءات نقدية، العدد الثالث، ١٣٩٠هـ ٢٠١١م.
- رثاء ابن الرومي بين الاتباع والابتداع، علي أصغر حبيب، إضاءات نقدية، العدد الثالث، ١٣٩٠هـ ٢٠١١م.
- رثاء ابن الرومي بين الاتباع والابتداع، قصيدة رثاء البصرة نموذجا، علي أصغر حبيب، مجلة إضاءات نقدية، ١٣٩٠هـ – ٢٠١١م.
- ركان الصدفي، ابن الرومي الشاعر المجدد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠١٢م.
- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، رقم ٤١٨٣، ٢/١٤٠٠، دار إحياء الكتب العربية.
- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥، ط٣.
- الصورة الأدبية تاريخ ونقد –علي علي صبح– دار إحياء الكتب العربية.
- الطبري: تاريخ الرسل والملوك – دار المعارف بمصر – القاهرة ١٩٧٠ م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني الأزدي ت: محمد محيي الدين عبد الحميد– دار الجيل– الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.
- عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- الفرائد لما في خطبة الوداع من الفوائد، د/ زين بن محمد العيدروس، ط٢، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، حضرموت – اليمن.
- قصيدة رثاء البصرة لابن الرومي دراسة نصية، منيف بن سعود بن سمير الحربي، حولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، المجلد السادس والعشرون، الجزء الثالث، ديسمبر ٢٠٢٢م.

- كتاب الأنساب، سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان.
- مجلة الكتاب
- مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي للألباني– مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض–الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- مدخل إلى علم الأسلوبية، شكري محمد عياد، دار الكتاب، القاهرة–مصر، ط٣، ١٩٩٦م.
- معاهد التنصيص .
- معجم الشعراء للمرزباني
- وفيات الأعيان لابن خلكان.

***